قصة ملكة سبأ

بين الأسطورة والتاريخ

د. زاهر رياض

الكتاب: قصة ملكة سبأ.. بين الأسطورة والتاريخ
الكاتب: د. زاهر رياض
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

رياض، زاهر
قصة ملكة سبأ.. بين الأسطورة والتاريخ / د. زاهر رياض
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٦ – ٧٠ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٥١٥٥ / ٢٠٢٠

قصة ملكة سبأ
بين الأسطورة والتاريخ

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

القصة الرسمية

تنص المادة الثالثة من دستور إثيوبيا الذي صدر في سنة ١٩٣١ على ما يأتي:

«يقرر القانون أن الشرف الإمبراطورى سيظل بصفة دائمة :صلا بأسرة هيلاسلاسي الأول، سليل الملك مهلاسلاسي الذي يتسلسل نسبه بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن الملك سلمان ملك بيت المقدس وملكة إثيوبيا المعروفة باسم ملكة سبأ».

ولم تكن هذه المادة إلا ترديداً لما يعتقده الشعب – دون أن خالي، أي شك في هذا الاعتقاد من أن ملوكه يتسلسلون من مثليات الأول ابن ملكة سبأ.

وفي سنة ١٩٥٥ استبدل بالدستور القديم دستور آخر نصت المادة الثانية منه على أن « يظل العرش بصفة دائمة محصوراً في نسل هيلاسلاسى الأول، المتسلسل من الملك سهلاسلاسى الذي هو بدون توقف أو انقطاع من تسل أسرة منليك الأول ابن ملكة إثيوبيا ملكة سبأ من سلمان ملك بيت المقدس ».

ويلاحظ في نص المادتين أن المحافظة على العرش في أسرة

الإمبراطور هيلاسلاسى الأول إنما تستند على كونه سليلا مباشرة للملك مثليات الأول ابن ملكة سبأ الذي أجبته من سامان ملاك المقدس حين زارته في قمر ملكه.

ويروى الإثيوبيون لهذه الزيارة قصة تعتبرها الحكومة قصة رسمية، ضمنتها مع غيرها من قصص الملوك وسيرهم كتابة هو « كبرانجست » أي سير الملوك، وتقول هذه القصة :

كانت ماكيدا ملكة إثيوبيا تحكيم الحبشة واليمن فترامى لهذه المملكة العظيمة صيت بعيد في جميع أنحاء العالم. وكانت هذه الملكة واسعة الثروة والغي تملك الكثير من الذهب والفضة، والعدد الهائل من الجمال والعبيد الذين يعملون بإرشادها، وتحت إمرتها، في نقل التجارة إلى الهند وأسوان. وكان هناك تاجر كبير يدعى تامارين أو ثمر الدين يملك خمسمائة وعشرين جملا، وثلاثمائة وسبعين سفينة. وعندما سمع به سلمان الذي كان يحكم بيت المقدس أرسل إليه يدعوه ليحمل له شيئا من تجارة الحبشة والجزيرة العربية من الذهب الأحمر والخشب الأحمر الذي يعز على السوس ؛ فلبى التاجر الدعوة، وذهب إلى هناك، فاشترى منه الملك كل ما عرضه عليه من ثمين العروض، وأجزل له العطاء. وكان من الطبيعي أن يمكث تامارين في بيت المقدس بضعة أسابيع شاهد فيها عظمة سليمان وسمع حكمته وأعجب به، كما أعجب بطريقة حكمه لشعبه، وحب الشعب له. حتى إذا عاد التاجر

إلى ملكته ماكيدا في الجنوب أخذ يقص عليها بعض ما شاهده وأعجب به من حكمة سلمان الذي كانت كلماته كالماء للعطشان، والخبز للجائع، والدواء للمريض، والكساء للعارى. كما قص عليها أمر هيكله الذي بناه في بيت المقاس. وكيف كان يستخدم في بنائه سبعمائة نجار وثمانمائة بناء حتى جعله تحفة تروق للعين ولا تسأم التطلع إليه.

أخذت الملكة تستمع إليه في سأم أولا، ثم لم تلبث أن مالت إلى سماع حديثه وأنصتت إليه، وتطور الحال إلى أن صارت تسأله عن هذا الملك العظيم وتلح في السؤال، وقد ازداد إعجابها به، وزرع الله في قلبها الرغبة في أن تذهب إلى بيت المقدس لترى هذا الملك العظم وتتزود من حكمته. ولم يكن يثنيها عن عزمها إلا ما تعرفه عن طول الرحلة ومشاقها وما يتعرض له المسافر من أخطار الطريق. على أنها لم تلبث أن أعلنت رغبتها إلى شعبها فوافقها على ما تريد، فأمرت ثمر الدين أن يقوم بأمر الرحلة، فأعد سبعمائة وسبعة وتسعين جملا وعدد لا يحصى من الحمير والبغال. وبدأت الملكة ذات الجاه رحلتها الخطيرة محاطة بكل أسباب العظمة والفخامة.

ولما وصلت إلى هناك استقبلها الملك العظيم، وأحاطها بكل أسباب الترحيب، وأفرد لها جناحا خاصا في قصره، وأمر خدمه وطها ته أن يقوموا على خدمتها، وأن يجهزوا لها ولأفراد قافلتها كل ما

يحتاجون إليه من أسباب الراحة، حتى لا يشعروا بأم الاغتراب وخصص لها فرقة مكونة من خمس وعشرين مغنية وخمس وعشرين راقصة، لتقدم لها من ألوان التسلية ما يروح عن نفسها. وزارها سليمان كثيرة في قصرها، وأكثر من هذه الزيارة، لما كان يحسه من متعة الجلوس إليها، والاستماع إلى حديها. كما جلست هي إليه واستمعت إلى حديثه، فشكرت الرب الذي هداها إلى أن تقوم هذه الزيارة لتسمع حديثه، وتمتلئ من حكمته. ولست كيف تشعب علمه، وشمل جميع أنواع الفنون، واكتشفت أنه كان يعرف لغة الحيوان والطير، وأنه كان يملك قوى يسيطر بها على الأرواح والشياطين التي كانت تأتمر بأمره. وكل ذلك أعطاه الله إياه، لأنه لم يكن يبغي الشهرة أو الانتصار في الحرب أو الثروة بل الحكمة وحدها.

استمعت ماكيدا إلى سلمان العظيم وامتلأت من حكمته، ونزلت كلماته إلى قلبها، وأخيرا وجدت في نفسها الجرأة لأن تكلمه عن ديانتها، إذ أنها كانت وشعبها يعبدان الشمس، وأنها سمعت عن الله الواحد، وعن تابوت العهد، وعن لوح موسى النبي. فشرح لها سامان قوة الله العلى خالق كل شيء، مبدع كل شيء، فسرعان ما اعترفت بقوة الله الأحد، خالق السماء والأرض.

وأمضت ما كيدا في هذه الضيافة ستة أشهر زارت في أثنائها سلمان كثيرة في قصره، وزارها سامان في جناحها. وأخيرة أرسلت إلى

الملك من ينبته برغبتها في العودة إلى مملكتها ولو أنها تود أن تمكث مدة أطول. وجالت في خاطر سامان فكرة الزواج بهذه الملكة الجميلة الممتلئة بالحكمة، فأرسل إليها يقول إنها انتوت العودة دون أن ترى طريقة حياته في قصره. ودعاها لأن تقيم في هذا القصر لتتم حكمتها ؛ فليت ماكيدا الدعوة وانتقلت إلى القصر حيث هيأ لها مكانة تستطيع أن ترقب منه كل ما يجري في القصر دون أن تزعج أحدا أو يزعجها أحد.

وكانت غرفتها مزينة بأبهج وأجمل وأغلى ما عرفه العالم من الجواهر الكريمة والطنافس الفاخرة والأستار الثمينة والذهب الذي كان يجلبه من أوفير، كما كان الهواء معطرة بالعطور والبخور وزيت المر، وكان الطعام يحمل إليها محتوية كل ما في الدنيا من أطايب الطعام والشراب، مما جعلها تقبل عليه بهم كبير ؛ وزاد في إقبالها عليه ما كانت تحويه المائدة من النبيذ الفاخر والأفاوية التي تفتح الشهوة وتزيد العطش الذي لا يطفئه إلا الإقبال مرة أخرى على الطعام والشراب.

وبعد ذلك جمع سلمان الطهاة في قصره، وأمره أن يجهزوا طعاماً لكل من بالقصر، وأعطاهم من مخازنه كل ما هو شهي من الطعام والتوابل النفاذة الرائحة. وامتثل الطهاة لأمره. وعند ما أكلت الملكة من هذه التوابل. أكثرت من شرب الماء البارد ليلا ونهارا دون أن تروى و يطفأ ظمؤها. وفي الليلة الثالثة أمر سلمان سرا جميع من

بالقصر وخارجه ألا يقدموا لها من الماء شيئا، وإلا كانوا عرضة للموت، وإذا سألتهم عن مكانه فليجيبوها أنه بجوار سرير الملك.

وفي الليل شعرت الملكة بالحرارة في جوفها، بسبب ما أكلته من توابل كثيرة، وأمرت خادمتها بصوت عال أن تأتيها بالماء، ولكنها لم تستطع أن تقدمه لها، مما جعلها تدخل القصر وتسأل كل إنسان عن الماء، وكان كل واحد يجيبها بقوله: إنه بجوار سرير الملك فعادت و رفيقتها إلى سريرهما، ولكنها لم تستطع مسيرة، وكادت روحها تزهق، فأسرعت إلى القصر مرة أخرى ودخلت حجرة الملك، وكان يتظاهر بالنوم فشربت الملكة حتى ارتوت، واستعادت روحها، وشعرت أن قومها قد ردت إليها بعد أن كادت تموت.

وعند ما أرادت الملكة أن تعود أدراجها قفز إليها الملاك مسرعة وأمسكها وقال لها. لقد أصبحت زوجتي وفقا لقانون الملوك، فقد جئت إلى حجرة نوى، وحصلت على شيء ليس لك. هو الماء الذي هو أغلى شيء في الوجود وعليه تقوم الحياة. فوهبت له نفسها عن إرادة وحرية.

ونام سليمان فرأى في الحلم شمساً ساطعة ظهرت في السماء وسارت حتى وصلت إلى إثيوبيا واستقرت هناك، فسبب له هذا الحلم اضطراباً كبيرة، ولما استأذنت ماكيدا في العودة إلى شعبها أعطاها

سلمان هدايا كثيرة وستة آلاف جمل (القطع الصحراء، وسفينة لعبور البحر، وأخرى لتسافر بها في الهواء، كان سلمان قد صنعها بإرشاد من الله، وودعها سلمان بعد أن أعطاها الخاتم الذي كان في أصبعه كى لا تنساه.

عادت الملكة إلى مملكتها وشعبها، وهناك ولدت ولداً أطلقت عليه اسم ابن الحكيم، ونشأ الولد صحيح البدن، قويا، عاقلا حكم كأبيه.

وحدث أن تحدث يوماً إلى أمه، وسألها عن أبيه : هل مات في أثناء طفولته ؟ فأجابته الملكة : أبوك حي : إنه سلمان ابن داود نبي الله وملك أورشليم. وخاتم مملكة أبيك في حوزتي. سأعطيك إياه حين تكون ملكا، وهذه إرادة الله، وهي لا تنصب على، فالدولة لم تعد لي، ولكنها لك، ولك وحدك، لأنك ابن ملك. فسر الابن بذلك كثيرة وشكر أمه التي قالت له : أبي العزيز ؛ اجمع لنفسك الجند والهدايا، وكل ما هو غال وثمين، واذهب إلى أورشليم تجد أباك وتسمع حكمته، وهو ينصبك ملكة. ووضعت في يده الخاتم الذي أخذته من سلمان.

وخرج الشاب على رأس قافلة كبيرة مجهزه بالجند يقصد قصر أبيه. وعند ما أدخل إلى غرفة سليمان عرفه أبوه وقبله في جهته وفه و بين عينيه، وأكرمه غاية الإكرام، وأهدى إليه حزاماً، ووضع على

مفرقيه تاجاً، وفي أصبعه خاتمة، وأجلسه معه على العرش، وجعله مساوية له، وأطلق عليه اسم منليك....

ولم يكن في نية سليمان أن يعيد ابنه إلى أمه، فجعل يغريه بالبقاء معه في بيت المقدس، حيث تابوت العهد ولوح موسى، ولكن ذلك كله لم يرغب ابن الحكيم في الإقامة، بل صمم على العودة إلى وطنه وملكته وشعبه، بعد أن يحمل قطعة من غطاء تابوت العهد.

وعندما تبين سليمان تصميم ابنه على الرحيل جمع أعيان دولته وطلب منهم – ما دام ابنه مصممة على العودة إلى إثيوبيا ليكون ملكها – أن يرسل كل منهم ابنه البكر معه ليخدموه هناك كما يخدمون هم أباه، فوافقوا جميعا على ذلك.

وأخذ الكهنة منليك إلى الهيكل، وأدخلوه قدس الأقداس حيث لمس المذبح، وأعلنه صادوق الكاهن ملكة باسم منليك، ثم أركبوه بغلة أبيه سليمان، وطافوا بين هتافات الشعب وأصوات المزامير والطبول.

وأخذ صادوق يعلمه كيف يحكم شعبه، كما زوده بأهم ما جاء في الشرائع، كما زوده الملك بكل ما يستطيع أن يحمله معه من الخيول والعربات والجمال والبغال والحمير محملة كلها بالذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة، وبكل ما كان ضرورياً أن يحمله

معه ليستعين به في حكم مملكته كما تجمع الأبناء الأبكار ليصحبوا ابن ملكهم و يكونوا عونا له في حكم مملكته.

وبينما كانت التجهيزات تجرى كان هؤلاء الأبناء يجتمعون ليدبروا مع أمر مملكتهم الجديدة، فسرعان ما ظهرت لهم الحقيقة الكبرى، وهي أن هذه الرحلة بمثابة فراق نهائي لأهلهم ووطنهم، وهاب أكثرهم أن يترك مدينته أورشليم التي تحتفظ بتابوت العهد والتي يبسط عليها الرب حمايته، فاقترح عليهم عازار بن صادوق أن يحملوا معهم هذا التابوت، كما بين لهم الوسيلة التي يستطيعون بها أن يحملوه معهم دون أن يدري أحد بفعلتهم أو يفطن إليهم، وهون عليهم كل تضحية في سبيل غرضهم. وجمع منهم عازار في الحال مالا، وذهب إلى نجار وطلب منه أن يصنع له صندوقاً من الخشب أبعاده أبعاد تابوت العهد، حتى إذا أتم صنعه حملوه سراً إلى منزل أحدهم. واستأذن ابن الحكيم والده في أن يقدم ذبيحة إلى الإله قبل أن يترك بيت المقدس، ففرح سلمان برغبة ابنه، وقدم له مائة ثور ومائة بقرة وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف عنزة، وكمية هائلة من الدقيق وخبز الشعير. وفي أثناء تقديم الذبيحة حمل عازار وأصحابه الصندوق الخشبي الذي صنعوه إلى المذبح وهناك استطاعوا أن يستبدلوا به التابوت الحقيقي ويحملوه سرا إلى منزل عازار فحفر له وخبأه وجعل على مكانه علامة يستدل بها عليه.

وإذ تم كل شيء استأذن منليك أباه في الرحلة فقبله ومنحه بركته.

وتذكر سلمان في اللحظة الأخيرة أن زوجته كانت قد طلبت منه أن يزود أبنه بقطعة من غطاء تابوت العهد، فأمر صادوق أن يذهب إلى الهيكل ويأتي بغطاء التابوت القديم ويضع بدله غطاء جديدة، ففعل ذلك صادوق دون أن يكتشف الخديعة، وأعطى سليمان ولده الغطاء ففرح به كثيرا.

وسارت القافلة تقودها الملائكة وتمهد لها الطريق في البر والبحر، وتظللهم بأجنحتها لتمنع عنهم أذى الشمس المحرقة. ولم يجرؤ حيوان أو إنسان على أن يتعرض لهم بسوء، كما لم يشاك أحد منهم متاعب الرحلة أو حر النهار أو برد الليل، بل كانوا يقطعون في يوم واحد ما تقطعه القوافل العادية في ثلاثة وعشرين يوماً. وفي مصر علم ابن الحكيم بأمر السرقة وأتوه بالتابوت فسجد له في حين وقف رفاقه يصفقون ويرقصون من حوله، وقد كشفوا التابوت و رفعوا عنه ما كان يخفيه و وضعوا عليه الأغطية الثمينة، وساروا به فرحين يهللون ويزمرون حتى لقد تعجب منهم المصريون و زاد عجبهم حين وجدوا تماثيلهم تنحي وتسجد له إذا ما اقترب منها! وعند عبورهم البحر حملتهم الملائكة على أجنحتها، وكانت الأسماك تخرج من الماء وتتجمع حولهم. وطيور السماء تغني لهم أغاني الفرح والسرور، حتى وصلوا

سالمين إلى حدود إثيوبيا.

ولم يلبث سلمان أن روى لصادوق قصة الحلم الذي رآه وخاف منه خوفاً شديداً فلما سمعه هذا الرجل العجوز اصطكت ركبتاه هلعا، وخاف أن يكون التابوت قد مسته ضر أو خرج من بيت المقدس إلى إثيوبيا، فسأله سليمان عما إذا كان قد رأى التابوت بعينيه يوم استبدل الغطاء الحديد بالقديم ؟ فأجابه بأنه لم يفعل، فأمره الملك أن يسرع ليراه. وهناك تبينت له الحقيقة المقلة، حيث لم يجد إلا صندوق خشبيا فارغة، فأغمي عليه وخر على وجهه. ولما علم سلمان أمر أن يطارد ابنه وجماعته حتى

يسترد التابوت. وسار سلمان بنفسه مع القوة المطاردة بعض الطريق، فلما وصلت هذه القوة إلى مصر، عرفت من شعبها أن من يبحثون عنهم قد رحلوا عنها منذ تسعة أيام، فأيقنوا أنهم قد أخفقوا، وأن التابوت قد خرج من يدهم إلى الأبد، فعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة.

ولم يكد ابن الحكيم يصل إلى إثيوبيا. حتى كانت الرسل قد سبقته إليها حاملة إلى أمه أخبار وصوله ومعه تابوت العهد، فأرسلت إليه من يستقبله ويحمل إليه تحية أمه، وسارت هي إلى أكسوم مدينة الملك لتستقبله هناك.

وعند ما رأت الملكة التابوت يسطع كالشمس في كبد السماء خرت على الأرض ساجدة، وكشفت عن صدرها، وصفقت بيديها، وضحكت بصوت عال، ودارت ترقص حوله رقصة الفرح والسرور، وأمرت بالذبائح تنحر، فذبح في هذا اليوم اثنان وثلاثون ألفا بين ثور وبقرة وخروف وماعز، وحمل التابوت إلى حصن قريب ورتب له ألف وثلاثمائة رجل لحراسته.

وبعد ثلاثة أيام استدعت الملكة ابنها ونصبته قائدا ووهبت له سبعة عشر ألفا وسبعمائة فارس، وسبعة آلاف وسبعمائة مهر وألف وسبعمائة بغل، وكلها مطهمة مجهزة بالذهب والفضة، كما جعلت أعيان الدولة ووجهاءها يقسمون أمامها أن لا ينصبوا عليهم في المستقبل ملكة، وأن لا يقبلوا عليهم ملكة إلا من نسل داود، فأقسم الجميع فرحين، ونصبت الملكة عازار كاهناً أعظم، وتقبل الناس عبادة الإله الواحد، وصارت منذ هذا اليوم ديانة لإثيوبيا.

وبرغم أنها جعلت أعيان الدولة يقسمون أن لا يضعوا على عرشهم امرأة أبدا، فإنها لم تترك العرش بل ظلت محتفظة به، وجعلت ها نشر الشريعة، وسحق الديانة السبئية القديمة. واستمر حكمها بعد ذلك خمسة وعشرين سنة مملوءة بأنواع المجد مما جعل الإثيوبيين يعدونها أعظم ملوكهم، ويرفعونها إلى مرتبة القديسات. وماتت ولها من العمر ستون سنة، وكان ابن الحكيم ابنها الوحيد.

و بعد وفاتها جدد عازار ومن معه العهد لابن الحكيم، ونصبوه ملكا عليهم، ومحبوه إلى المعبد الذي بنته والدته وحفظت به تابوت العهد، وهناك مسحه بالزيت المقدس وأعلنه ملكا على كل بلاد إثيوبيا، فقابله الشعب بالتهليل والغناء ورقصوا ولعبوا ألعاب الفروسية. وهذه الاحتفالات أقيمت على نفقة الملاك واستمرت عدة أيام.

واختار ابن الحكيم لنفسه اسم منليك، وهو الاسم الذي أطلقه عليه أبوه، وجعل ينظم مملكته على نحو مملكة أبيه في بيت المقدس. فعين اثني عشر قاضية ليجعل مملكته مثالا المملكة أبيه.

وتصور لنا الأساطير الإثيوبية منليك هذا ملكاً شجاعاً اشترك في حروب كثيرة خرج منها جميعا منتصرة، فهاجم أعداءه في زاديا وهاديا، وانتصر عليهم، وقتل منهم عددا كبيرة وخرب بلادهم، وسار إلى جعيزا حيث خرب المدينة التي كان يسكنها أناس لهم ذيول كذيول الحمير، وعاد إلى أكسوم منتصراً

ثم سار ومعه جيشه إلى سبأ فوصل إليها في يوم واحد، والرحلة إليها في العادة لا تقطع في أقل من ثلاثين يوما. وخرب بلاد النوبة حتى حدود مصر. وقد أوقعت انتصاراته الرعب في قلوب ملوك مديام ومصر حتى لقد أرسلوا له الرسل والهدايا.

وفي حملة ثالثة تقدم إلى الهند، فخاف ملوكها منه، فساروا إليه وقدموا له الهدايا بعد أن سجدوا له وقبلوا دفع الجزية.

وتقول الأساطير إن منليك حكم أربعة وعشرين سنة، ومات بالغة من العمر خمسين سنة بعد أن تزوج سيدة رزق منها ولدا ارتقى العرش من بعده.

نصيب الأسطورة ونصب التاريخ

وإذا كانت هذه هي القصة الرسمية التي تعترف بها الحكومة والتي ضمنها – كما ذكرنا – كتاب «كبرا نجست »، والتي يؤمن بها شعب إثيوبيا – وخاصة شوا وجودجام وأجوامدر – إلا أن هذا لا يمنع أن هناك قصص أخرى تؤمن بها شعوب مقاطعات أخرى مثل تجرى ولاستا. وهذه القصص الأخرى تتفق في كثير من أحداث هذه القصة التي أوردناها، وتختلف معها في مواضع أخرى، إلا أنه اختلاف له مغزاه. ولا بد لنا أن نورد أكثر هذه القصص شيوعا لنرى مبلغ هذا الاختلاف والغرض منه، وحينئذ نصل إلى ما تريده من أن نبين نصيب الأسطورة ونصب التاريخ من هذا كله. ا تقول هذه القصة : لما أراد الله له المجد – أن يبني سليمان هيكل الرب في أورشليم بعد موت أبيه داود بن يسى، بدأ سلمان فأمر بقطع الأحجار في أحجام كبيرة، ولكن العمال لم يكونوا بقادرين على نحتها بالحجم الكبير الذي أراده سلمان إذ انكسرت آلاتهم في العمل، وصرخوا إلى سليمان طالبين إليه أن يهديهم بحكمته. ولجأ سلمان إلى الله – مانح الحكمة ليرشده إلى بعض الوسائل، ثم جمع سليمان الصيادين وأمرهم أن يأتوه برخ، فأحضروه له، فأمر بإناء من النحاس ذي ثلاث أرجل يسع هذا الرخ، وأمره أن يضعوا الرخ في فناء القصر والإناء النحاس فوقه، وكانت

أجنحة الرخ ظاهرة من تحت الإناء.

وعند ما عادت أم الرخ إلى عشها في أعلى الجبال ولم تجد ابنها، جعلت تحوم فوق الأرض باحثة عنه. وجاءت إلى أورشليم حيث رأت ابنها تحت الإناء في فناء القصر، ولكنها لم تتمكن من الإمساك به، وطارت حتى أتت الفردوس في الجهة الشرقية من عدن، ورأت فيه قطعة من الخشب كأنما وضعت هناك لتقف عليها. فأمسكت أم الرخ بها. واستمدت من حزنها قوة جعلتها تحملها وتطير بها، ولا تتركها حتى أتت أورشليم وأسقطت على الإناء النحاس وبقوة الله العلى انشق الإناء ورأت الأم ولدها، فأمسكت به وحملته إلى عشها.

عند ما رأى سليمان ورجال دولته ذلك صرخوا بصوت عال ومجدوا الرب لأنه منح الطير معجزة لا يستطيع بشر أن يفعلها، وأمر النحاتين أن يأخذوا هذه القطعة من الخشب ويقيسوا عليها أحجام الأحجار التي يريدون قطعها. وحينما أشارت الخشبة انكسر الحجر كما أراد النحاتون، و بذلك أصبح عملهم سهلا، فأيقن سلمان أن الرب قد وهبه بركة ؛ ولما كمل البناء ظلت قطعة الخشب في الحجرة الأمامية من الهيكل، ولكن بطل سحرها وإن ظلت موضع الاحترام والتقديس من سليمان وشعبه. ولأن الله — له المجد – أراد أن تنتقل مملكة داود وابنه سلمان إلى إثيوبيا المباركة أوعز إلى ملكة تلك البلاد أن ترحل إلى أورشليم لتسمع بعض حكمة سليمان، كما يقول الإنجيل

: «ملكة التيمن ستقوم مع هذا الخيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان ».

وكانت هذه الملكة فتاة من تجرى تسمى أتيجي أزب وهي كلمة معناها ملكة الجنوب، وكان شعبها يعبدون الثعبان، وكان على كل واحد من أفراد الشعب أن يهبه ابنته الكبرى وكميات كبيرة من الخمر واللبن كل عام في ميعاد معين، فلما جاء دور والد هذه الفتاة ليفعل ذلك قيدها إلى شجرة خارج المدينة، ووضع بجانبها كميات الحمر واللبن في انتظار مجيء الثعبان، وهناك قدم القديسون السبعة، وجلسوا تحت الشجرة طلباً للظل، فسقطت على أحدهم دمعة أرسلتها هذه الفتاة وهي تبكى، فتطلع إلى أعلى وتطلع بقية القديسين، فوجدوا الفتاة مقيدة إلى أحد فروع الشجرة، ففكوا وثاقها وأنزلوها، وراحوا يسألونها عما إذا كانت إنساناً أم جنياً ؟ فأخبرتهم بقصتها وهي تبكى. فصمموا على إنقاذها، وجلسوا في انتظار الثعبان، حتى إذا رأوه قادما هجموا عليه، فأمسك أحدهم بذقنه في حين قال الثاني : لقد أخافني، وصرخ الثالث : فلنقبض عليه، وهجم عليه هذا الأخير وساعده الباقون. وقتلوه بصليب كان معهم.

وبينما هم يفعلون ذلك طارت نقطة من الدم و وقعت على كعب الفتاة فصارت قدمها قدم حمار. وأسرع القديسون إليها وهيأوها وأرسلوها إلى أهلها في القرية. ولكن الناس ومعهم أبوها

طردوها ظنا منهم أنها قد هربت من الثعبان، فعادت إلى الشجرة وصعدت مكانها حيث أمضت الليل. وفي صباح اليوم الثاني ذهبت ثانية إلى القرية حتى إذا هموا بطردها من جديد قصت عليهم قصة الثعبان والقديسين، وأتت جماعة منهم إلى حيث ا به دست ما رواه تامارين قائد قافلتها عن سلمان، فصممت على كان الثعبان مقتولا، ففرحوا فرحاً شديداً ولم يجدوا أمامهم اعترافا أن تذهب إليه. تجميلها عليهم إلا أن ينصبوها ملكة عليهم، وجعلوا فتاة أخرى فقامت قافلة كبيرة تنكرت فيها الملكة ورئيسة حرسها في رئيسة لحرسها.

وسمعت اتيجى أزب بعد ذلك عن سليمان ومقدرته الطبية، وعن قدرته على أن يفعل العجائب، فصممت على أن تذهب إليه ليعيد قدمها إلى حالتها الأولى.

وكانت شهرة سليمان قد طارت إلى أقصى الأرض، لأنه كان يعامل تجاراً كثيرين يأتون إليه من جميع بلاد العالم، ومنها هذه البلاد التي تقع على شواطئ البحر الأحمر، وقد جلبوا إليه من هناك الأشجار الثمينة والعطور العالية والبهارات والأقمشة الرفيعة الغالية بل أتوا إليه بكل ما هو ثمين ليزين به هيكله وقصره.

وعندما كانت هذه القوافل تعود إلى بلادها أو غيرها من البلاد أخذ من اشترك فيها يصفون لأهلهم ومستمعيهم العمل العظيم الذي

كان سليمان يقوم به في أورشليم. ومن بين رؤساء هذه القوافل تاجر يدعى تامارين، كان متعهداً لمطالب ملكة الجنوب يحملها إليها من كل البلاد التي يذهب إليها، كما يحمل إليها بعض أخبار هذه البلاد، فسمعت ما رواه تامارين قائد قافلتها عن سليمان، فصممت على أن تذهب إليه.

فقامت قافلة كبيرة تنكرت فيها الملكة ورئيسة حرسها في زى غلامين وسافرا إلى بلاط سلمان في أورشليم.

وعند ما وصلت الملكة إلى أورشليم وسمع سلمان بوصولها، وكان قد سمع عن قدمها، دبر حيلة ماكرة يستطيع بها أن يرى هذه القدم دون أن يسألها أن تريه إياها، فوضع عرشه في أحد جوانب البهو في الهيكل، وأمر أحد عبيده أن يفتح ميازيب المياه حتى غمر أرض المكان بالماء، ووضع فوقها الخشية التي حملها الرخ من الفردوس. ولم يفهم أحد ممن حوله حكمة هذا العمل. فلما وصلت الملكة إلى باب الهيكل ترجلت عن دابتها وهمت بالتقدم إلى بابه ولكنها تراجعت وكادت تعاود امتطاء دابتها لا أنها أخطأت المكان، ولكن من معها أفهموها أن هذا هو باب الهيكل الذي لا يدخله أحد راكبا. وعاونها خدمها على الدخول، ومدت يدها وشمرت عن ساقها، وبذلك رأى سلمان القدم دون أن يسألها. ثم مدت قدمها فست قطعة الخشب، فتحولت بقوة الله إلى قدم طبيعية كالأخرى. فحل بها خوف عظيم، ولكنها فرحت وتقدمت وخاضت الماء رافعة أثوابها، حتى وصلت إلى حضرة

سلمان، فأخبرها أنه أمر بوضع الماء عمدة ليجعلها تكشف عن ساقها فيرى قدمها. وأمر سلمان الماء أن يجفف، فظهرت الخشبية السحرية، فقص سلمان قصتها على الملكة فقدمت لها احترامها، وخلعت عقداً غالياً من جيدها وزينتها به، مما جعل سلمان يزينها بعقد آخر. ويجعل لها مكاناً خاصاً في الهيكل. وأصبح من عادة خلفاء سلمان كلما أتوا إلى الهيكل للصلاة – أن يزينوا قطعة الخشب بحلقة من فضة.

وبدأ سلمان فقدم للملكة كل فروض الاحترام، وجعلها و رفيقتها وحاشيتها وجنودها يقيمون في قصر بجوار قصره، وكان يزورها كل يوم كما تزوره، لتسمع من حكمته وتتعلم منه.

وتمضي القصة بعد ذلك متفقة مع القصة الأولى حتى تصل إلى زواجها من سلمان، وتذكر كما ذكرت القصة الأولى أن هذا الزواج تم عن إرادة وحرية طبقا لقانون الملوك. ولكنها تختلف عنها في ذكر أن ساملن قد أضاجع مع خادمتها كما اضطجع معها، وأعطى كلا منهما قطعة من الفضة وخاتمة ومرآة، وقال لهما : إذا كان المولود بنتا فلتحمل قطعة الفضة وتأت إليّ، أما إذا كان ولداً فليحمل الخاتم. ثم عادت الضيفتان إلى بلدهما وولدت كل منهما ولدا.

وتحمل الرغبة الولدين على أن يطلبا رؤية والدهما، فأرسلتهما الملكة إليه. ولكن القصة تذكر أن الملكة أعطت ولدها الخاتم والمرأة في

حين نسيت الأخرى أن تعطى ولدها المرأة.

وخرج الشابان معا على رأس قافلة كبيرة مجهزة بالجند يقصدان قصر أبيهما. ولما وصلا إلى القدس، وعلم سلمان أن هناك ولدين يزعمان أنه أبوهما، أمر بتأخيرهما ثلاثة أيام وفي نهايتها أعار واحداً من أصدقائه ملابسه الملكية وأجلسه على العرش، ولبس هو خرقة ممزقة وذهب إلى الإسطبل وأخذ يرقب كل شيء من بعيد. ثم أمر الشابين أن يدخلا إلى قاعة العرش نظام ولد الوصيفة أولا وقبل يد الحالي على العرش وهو يحسبه أباه في حين ظل ابن الملكة المسمى منليك واقفة من بعيد دون أن يقدم فروض الطاعة. وأخيرا تقدم وهو ينظر في المرآة التي أعطته إياها أمه، فرأى ملامحه كما تظهر في المرآة مختلفة تماماً عن ملامح الجالس على العرش، فأيقن أنه ليس أباه الملك، فأخذ يتجه يمينا وشمالا بحثا عنه، وهو لا يجد أحدا يشبه، وبعد مدة رأى سلمان ينظر إليه من وراء باب الإسطبل، فعرفه لساعته، فذهب إليه وقدم له فروض الطاعة، فصرخ سلمان : هذا أبي... الحقيقي... والثاني هو ابني أيضاً ولكنه غبي. وأراه ولده الخاتم الذي أخذه من أمه الملكة، فلما شاهد سلمان الخاتم تأكد أنه ولده، وغمره فرح عظيم، واحتضنه وصرخ قائلا: مرحبا بابي الحبيب، أنت ابن داود. ووضع سلمان تاج أبيه على رأسه وأجلسه على عرش داود أبيه.

وضرب أصحاب الطبول طبولهم، ونفخ أصحاب الأبواق

أبواقهم وصرخ المعلنون قائلين : هذا داود بن سلمان بن داود ملك أورشليم، وسمع هذا الأمر خارجاً، وانتشر بين جميع قبائل أورشليم أن ابن سلمان من ملكة الجنوب قد أتى إلى أبيه وأن سلمان قد توجه ملكا ليجمع مملكة داود أبيه، وأجلسه على عرشه.

ولكن سرعان ما تبين الناس أن الابن والوالد كثيراً ما كانا يختلفان في أحكامهما القضائية وحينئذ أبدى الشعب رغبته في أن لا يحكمه ملكان، وأن على سلمان أن يعيد ابنه إلى دولته. وصارح سليمان ابنه بذلك فطلب منه أن يسألهم : أليس هذا ابن البكر ؟ فإذا وافقتم فسأرسله إلى دولته إذا رضيتم أن ترسلوا معه أبكاركم. ورضي الناس بذلك، وأخذ سليمان يجهز لابنه رحلته.

وكان في الهيكل الذي بناه سلمان تابوت عهد الرب وفي داخله لوحا الحجر اللذان كتب الله فيهما بأصابعه وصاياه، وعصا هارون، ولوحا مانا. وكان هذا التابوت مغطى بصفائح من الذهب وملفوفا بلفائف من القماش المطرز بالذهب. وكانت هناك معجزة يراها الشعب كله، وهي أنهم إذا انتهوا من ضراعاتهم في أثناء صلاة الكهنة ومثول الشعب أمام الرب مدبر الكون، يرتفع التابوت عن الأرض فيعلم الناس أن تضرعاتهم قد قبلت، فإذا لم يرتفع أيقن الكهنة أنهم قد ارتكبوا شيئا. أو ارتكب الشعب شيئا يستحق المؤاخذة. ويأخذون في البحث عن مرتكب هذا الشيء ليعاقبوه، حتى إذا تم ذلك ارتفع

التابوت، فكان ذلك بمثابة انصراف غضب الرب. وحدث أن ذهب ابن سلمان إلى الهيكل للصلاة، ورأى التابوت وقد ارتفع، الشيء الذي لا يستطيع عقل بشر أن يفهمه فسر من ذلك، وصمم على أن يحمله معه إلى مملكته، وأعلن ذلك لسليمان أبيه، وقال له سأحمل تابوت عهد الرب إلى مملكتي. فأجابه : يا بني العزيز، إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك، فليس هناك من يستطيع أن يحمله إلا من كان كاهنا. وإذا مسه غير كاهن ذهبت طهارته حالا. هذا إلى أن الشعب ليس له حام من أعدائه سوى تابوت عهد الرب. ولكن هذا الكلام لم يقنع الابن وقال لأبيه : أنا لا أسألك ذهب ولا فضة، لأنه كثير في مملكتي ؛ ولا أسألك إلا هذا التابوت. كى يصونني في رحلتي، ويسند دولتي وجندي. فأجابه سلمان : إذا كانت إرادة الله قد قضت أن تأخذه، فسيكون ذلك ميسورة لك. ولكن إذا كنت ستحمله معك فلا تجعلني أعرف ذلك، ولا تودعني لأن الكهنة وأبناء الشعب جميعا سوف يسألوني عنه ويجعلوني أقيم على ما أقول، ولن أقسم لهم إلا صادقاً.

ودعا الابن سراً صانعاً وكلفه أن يعمل صندوقاً خشبياً مقاييسه هى نفس مقاييس الصندوق الذي فيه التابوت. فلما أتم عمله نقله ليلا، ودعا صناعة آخرين وكافهم أن يضعوا عليه الذهب كما في صندوق التابوت، وقتلهم جميعاً، كما قتل الصانع الأول. ثم غالى الصندوق الجديد بأقمشة مطرزة بالذهب تشبه أقمشة الصندوق

الأول. ولم يهام سامان عن هذا كله شيئا. ودعا الابن أربعة من الكهنة ليصلوا له قبل رحيله. وأقنعهم بعد أن أعطاهم ذهب كثيراً ورشوة كبيرة كي يساعدوه في كل ما يريد.

وفي ليلة رحيله جاء الكهنة ليودعوه، فأخذهم إلى مسكنه ليصلوا له، فلما اختلى بهم أمر فقيدوا بقيود من حديد، ثم أمر جنوده أن يصعدوا ويرحلوا دون أن يعلنوا الرحيل. وأخذ معه حفنة من رجاله المخلصين مزودين بالحراب ومعهم هؤلاء الكهنة إلى الهيكل، وأمر الكهنة أن يحملوا التابوت ويجعلوا الصندوق الذي صنعه، مكانه، وخرج من المدينة ليلا ومعه التابوت يحمله الكهنة ولم يودع والده ولم يعلمه برحيله. وحادث كل ذلك بإرادة الرب له الشكر لحمايته التابوت المقدس. كى يسكن إلى الأبد في ملكة داود كما وعد الله داود أن يجلس نسله على العرش إلى الأبد.

وفي الصباح ذهب الكهنة والشعب إلى الهيكل ليقيموا الصلاة، وبعد ما انتهى الكهنة من تضرعاتهم لم يرتفع التابوت في الهواء كما كان يحدث من قبل، بل لم يتحرك من مكانه، فظنوا أن أحدا قد أخطأ، وأمروا بالصوم والصلاة ثلاثة أيام. وداروا يبحثون بين الناس من يكون قد ارتكب الإثم، ولكنهم لم يجدوا " أحدة. فذهب الكهنة إلى التابوت وكشفوا عنه الغطاء... فأي مصيبة وأي نكبة! وأي رعب رأي حزن حل" عليهم بسبب ما اكتشفوه من عدم وجود التابوت، وما معه من أشياء مقدسة!

وعندما تأكدوا أن ابن سلمان هو الذي أخذه بحثوا فعرفوا الكهنة الناقصين، لأنه كان قد أخذه معه، فأيقنوا أنهم الخطاة. وعندئذ ذهب الكهنة والشيوخ إلى سليمان الملك، وكانوا جميعا يصرخون ويولولون من الحزن بسبب ضياع التابوت المقدس، فقالوا لسليمان أنت الذي أمرت ولدك أن يأخذ التابوت، فبكى سلمان وأقسم لهم أنه لم يسمح لولده بذلك، ولم يودعه، ولم يعلم شيئا عن سفره. فأجابه الكهنة والشيوخ. قائلين : حفظ الله الملك، إذا كان ذلك قد حدث دون إذنك فأرسل جندك المسلح لتطارده وتستعيد التابوت. وتعيده إلى مكانه المقدس. وفعل سلمان ذلك وأعطاهم مالاً ومؤونة. وخرجوا في طلب الشاب فساروا أربعين يوماً، ووجدوا تجارة في الطريق، فسألوه عما إذا كانوا قد رأوا التابوت، فأجابهم التجار أنهم قد رأوا ملكة عظمة، وجنوده الكثيرين، وأن الصندوق كان معهم، وأنهم يسيرون كسحاب يدفعه ريح قوي. وأخبرنا سكان القرى التي مررنا بها أنهم ساروا منذ أربعين يوماً. فعاد الجند يملأ الحزن أفئدتهم، ولكن هذا الحزن لم ينفعهم شيئا. وأخيرا وصل الشاب إلى مملكته سالما، وقابلته أمه ونزلت عن عرشها وجلس هو ملكة على عرش داود أبيه. وبذلك أصبحت مملكة إثيوبيا تتبع عرش داود إلى الأبد. واستقر التابوت هناك.

القصة والخرافة

لعل أول ما يلاحظ في هاتين القصتين اتحادها في الهدف وفي أجزاء كثيرة منهما، وإن اختلفا في اللفظ وفي بعض التفاصيل.

ولعل أولى نقاط هذا الاختلاف تجاهل القصة الأولى المقامة التي تشير إلى الثعبان الذي كان يعبده أهل تجرى، وتقديم الأهالي له الفتاة والابن والخمر كل عام. ولعل هذا الجزء أيضا هو أقرب أجزاء القصة إلى الخرافة ؛ وظاهر أنه وضع من أجل إيجاد سبب لقيام الملكة برحلتها إلى أورشليم. وقصدت الفروسية إلى الهدف مباشرة، وهو رغبة الملكة في تعلم الحكمة من سليمان كغرض أساسي وحيد.

أما اختلاف القصتين من حيث عبادة أهل إثيوبيا للحية في القصة الثانية أو الشمس في القصة الأولى، فليس بذي بال، ما دام الشعبان وثنيين تهديهما الملكة بعد زيارتها لسلمان إلى عبادة الله الواحد.

ونقطة أخرى من نقاط الاختلاف، وأكثرها وضوحاً، هو تجاهل القصة الأولى لهذه الفتاة الثانية التي صحبت الملكة في رحلتها. وإنجابها ولدا آخر من سلمان. ولا بد أن واضعي القصة الثانية قد هدفوا من وراء وضع هذا الجزء إلى غرض معين سوف نبينه فيما بعد.

ونقطة ثالثة من نقاط الاختلاف أيضا، وهي إصرار القصة الأولى على إظهار ابن الحكيم بمظهر غير السارق أو القاتل، فأصحابه من أبكار الرجال هم الذين دبروا أمر السرقة دون أن يعلم بها منليك، ولم يعرف خبرها إلا في مصر فلم يسعه إلا التسليم بها.

ونقطة رابعة من نقاط الاختلاف أيضاً، هو العهد الذي أخذته الملكة على شعبها بعد عودة ولدها من عند أبيه أن لان عليهم ملكة في المستقبل، بل أن يكون كل من يتولى الماء في بلادهم من الذكور، و على ذلاك ولا شك عدم الاعتراف بأي ملكة ترق العرش باعتبارها مغتصبة له، وبالتالي اعتبار كل من يلي العرش من أبناء هذه الملكة ملوكا غير شرعيين.

ونقطة خامسة أيضاً تتمسك بها القصة الأولى، هي هذا الحلم الذي رأى فيه سلمان الشمس تنتقل من فوق مملكة أورشليم إلى إثيوبيا واستقرارها فيها.

ومن الطبيعي أن هذه الاختلافات لم توجد عبنا، ولم توضع في إحدى القصتين دون الأخرى دون سبب أو غرض، مما سوف نبينه.

والآن نعود إلى دراسة القصتين بصفة عامة.

أما زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس فهي حقيقة تاريخية لا سبيل إلى الشك فيها، فقد جاء في الإصحاح الرابع من سفر

الملوك الأول كيف أعطى الله سلمان حكمته. حين قال " وأعطى الله سليمان حكمة وفهم كثيرة ورحبة قلب بالرمل الذي على شاطئ البحر، وفاقت حكمة سلمان جميع إلى الشرق، وكل حكمة مصر، وكان أحكي من جميع الناس، من أتان الأزراحي، وهيران وكلكول، ودردغ ابن ما حول، وكان صيته في جميع الأمم حواليه، وتكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفا وخمسة، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا التي تنبت في الحائط، وتكلم عن البهائم، وعن الطير، وعن الدبيب، وعن السمك، وكانوا يأتون إليه من جميع الشعوب ليسمعوا من حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا عن حكمته ".

وقد وهبه الله هذه الحكمة حين ألح في طلبها وفضلها عن كل ذهب الأرض بل فضلها على طول العمر، وعلى السلطة التي تمكنه من قهر أعدائه.

كما جاء في الإصحاح العاشر من نفس السفر خبر هذه الزيارة. فقد قال : « وسعت ملكة سبأ بخبر سلمان المجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل كثيرة، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطياباً، وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة، وأتت إلى سلمان، وكلمته بكل ما كان في قلبها، فأخبرها سلمان بكل كلامها، ولم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت الملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت

الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدامه وملابسهم، ومحرقاته التي كان يصعدها إلى بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد، فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضى عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى، فهذا النصف لم أخبر به. فقد زادت حكمتك وصلاحك عن الخبر الذي سمعته. طولي لرجالك، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما، السامعين حكمتك، ليكن مبارك الرب إلهك. الذي سر بك وجعلك ملكا لتجرى حكمة وبرا، وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب. وأطياباً كثيرة جدا وحجارة كريمة. ولم يأت مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ. للملك سلمان. وكذلك سفن حيرام التي حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير خشب الصندل ودرابزينا لبيت الرب. وبيت الملك. وأعواداً ورباباً للمغنين. ولم يأت ولم ير مثل خشب الصندل. ذلك إلى هذا اليوم. وأعطى الملك سلمان الملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاه إياها حسب كرم الملك سلمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها ".

كما جاء في الإصحاح الحادي عشر من نفس السفر أن جميع الملوك كانوا يقصدونه ابتغاء سماع حكمته حين قال :

"وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سلمان لتسمع حكمته التي جعلها الله في قلبه".

وتتكرر القصة في أخبار الأيام الثاني. ويكاد النصان يتفقان في الكلمات، ولكنها في الثاني تزيد عن الأول في وصف قصر سليمان وآنيته ومركباته وخيوله.

كما ذكرت هذه الزيارة في العهد الجديد في موضعين، وهي الآية الثانية والأربعون من الإصحاح الثاني عشر من إنجيل متى « وملكة الجنوب ستقوم مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان »، والآية الواحدة والثلاثون من الإصحاح الحادي عشر من إنجيل لوقا «ملكة التيمن ستقوم في الدين مع رجال هذا الدين وتدينهم لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان وهوذا أعظم من سليمان ها هنا ».

وذكرت هذه القصة في القرآن الكريم أيضا فجاء في سورة العمل: « ولقد آتينا داود وسلمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين. وورث، سلمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم مسلمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين. وتفقد

الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصاهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الحب في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول" عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ إني ألي إلى كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .ألا تعلوا على وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فا آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلتأتيهم جنود لا قبل ليم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون، قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها. قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن. أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك

طرقات فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي، ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم. قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين. وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت : ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين ».

ملكة سبأ

ولكن من هي ملكة سبأ التي ذكر كل من العهد القديم والقرآن الكريم أنها أتت إلى سليمان؟ ومن هي ملكة الجنوب التي جاءت في إنجيل متى أو ملكة التيمن كما جاء في إنجيل لوقا؟ وما علاقتها بإثيوبيا؟ وماذا كانت نتيجة زيارتها لسليمان، غير هدايتها وتركها الوثنية إلى التوحيد على ما يذكر القرآن؟

الجواب عن هذا لم تذكره المصادر الدينية، ولكن تتكفل به القصتان الإثيوبيتان لتصلا به إلى الهدف الذي أرادتاه من أن ملك إثيوبيا هو ابن سليمان ملك بيت المقدس.

ولكننا نعرف أن سبأ جزء من اليمن لا من إثيوبيا، وأنها كانت تكون جزءا من مملكة معين، وكانت هذه الأخيرة – بحكم طبيعة بلاد اليمن الجبلية – مقسمة إلى ولايات تنحصر كل ولاية في واد من أودية اليمن، وكان يتولى كل ولاية ملك يتبع ملك معين، ويدين بالطاعة له، وذلك في الفترة ما بين سنة ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق.م

بدأت سبأ تظهر منذ القرن العاشر، ولكنها بدأت تعظم وتقوى حين أخذت معين تضعيف حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد. ولا تمدنا الصادر التاريخية بأسباب ضعف معين وقوة سبأ، ولكنا نعلم

أن التجارة كانت المصدر الرئيسي لثروة كل من معين وسبأ، فقد امتد نشاط اليمنيين التجاري إلى الخليج الفارسي وإلى أعالي بلاد الحجاز مما يلي سواحل البحر الأحمر، وأنهم كانوا يحملون أنواع البخور من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية. فلا بد أن نشاط التجار السبئيين قد فاق نشاط التجار في أجزاء مملكة معين الأخرى، مما مكنهم ومكن ملوكهم من اقتناء ثروة زادت من قوتهم ؛ وربما كان خصب سبأ واشتغال أهلها بالزراعة إلى جانب التجارة قد مكنهم من زيادة ثروتهم حتى استطاعوا أن يرثوا دولة معين في القرن السابع قبل الميلاد ؛ وأخذت قوتها تكبر ونفوذها يمتد حتى تسلطت على ما جاورها من القلاع والمخاليف.
وكانت مأرب عاصمتها. تمتد إلى مسافة مائة وستين ميلا شمالي شرقي بلاد اليمن. ومن أجل الزراعة وإقبالهم عليها واهتمامهم بها بنوا سداً كبيراً لحجز مياه المطر. وما كشفت عنه الحفريات الحديثة من هذا السد يدل على أنه كان متين البناء له فتحات كثيرة علاوة على سلسلة من الصهاريج الجبلية التي تغذيها ينابيع الماء. وقد كان لسبأ في عهد قوتها أسطول قوي يمخر البحر الأحمر ليحمل البخور والابان إلى الهياكل المصرية. ولكن لم يلبث الضعف أن تسرب إلى هذه المملكة الغنية، فأهملت الاهتمام بالسد والصهاريج مما كان سبباً في تصدعه وتخريبه، فكان من أثر ذلك أن عجز الأهالي عن زراعة أراضيهم إلا لفترة بسيطة هي التي تلي فترة المطر الصيني، فعمتها المجاعات في أوقات كثيرة حتى اضطر أهلها إلى الهجرة والتفرق في

البلاد المجاورة، ومن ثم أخذت بلاد أخرى كانت تابعة لها تتفوق عليها وتقبض على زمام السيادة. ويذكر المؤرخون أن ذلك كان في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، حين أخذت حمير تظهر.

ويذكر المؤرخون أن ملوك سبأ لم يحملوا لقب الملك قبل القرن السابع، وأن ملكهم كان يسمى « مكرب سبأ » وقد تلقب بهذا اللقب نحو سبعة عشر ملكة. وكانت كلمة مكرب تعني تابعاً.

والشيء الثابت أن مملكة سبأ. وإن اتسع نفوذها لم تمتد فتعبر البحر الأحمر مطلقة، فلا نستطيع أن نقول إن إحدى ملكات هذه الدولة قد امتد نفوذها فشمل إثيوبيا حتى يقول الإثيوبيون إنها كانت ملكة لهم.

ولكنا نعرف أن دولة أكسوم قد امتدت في أوقات كثيرة فعبرت البحر وشملت أجزاء من اليمن، فهل نستبعد أن تخرج مملكة سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد عن سلطة ملوك معين التدخل في سلطة ملوك أكسوم ؟ إن لدينا أكثر من دليل على اتساع دولة أكسوم وعبورها البحر وشم ولها أجزاء من اليمن في أوقات كثيرة من تاريخها، فقد قويت مملكة أكسوم بعد انحلال مملكة نباتا في الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد بفضل اشتغالها بالتجارة، وامتد نفوذها حتى شملت سبأ، ا وأقام ملوكها نصبا تذكاريا يشهد بفضل الإله محرم

السبئي. على ما أولاهم من نصر على مملكة سبأ.

كما تدلنا النقوش التي كشفها ونشرها الأستاذ ليتمان سنة ١٩٠٥ على أن ملكا لا يذكر النقش اسمه كان يعيش في أكسوم في النصف الثاني من القرن الأول بعد الميلاد قام بجملة فتوحات غزا في الأولى منها شعب الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية كما غزا عجامى وسجايت وعدوة وغيرها من البلاد التي تقع في الركن الشمالي الشرقي من الهضبة الحبشية، وكانت غزوات مستمرة آخرها هذه الغزوة الكبيرة التي أرسلها عبر البحر الأحمر ليؤدب الحمير بين وجميع الشعوب التي تسكن جنوب الجزيرة العربية حتى عدن، لأنهم كانوا قد اتخذوا حرفة لهم هب التجارة الأكسومية التي تسير في البحر الأحمر أو جنوب الجزيرة العربية صوب حضرموت.

وإن هذا النقش الذي عثر عليه ديتمبرجر عن ملوك أكسوم يقول : « قد تملكت الشعوب التي تعيش بالقرب مني لأحافظ على السلم، فقد غزوت شعوب (كذا وكذا) واقتسمت معهم أملاكهم، وعبرت النيل، وغزوت الشعوب التي تسكن على الناحية الأخرى التي تتحصن في الجبال العالية المغطاة بالثلوج، والتي يغوص فيها الإنسان حتى ركبتيه، كما تسلطت على جميع الشعوب التي تجاورهم حتى وصلت إلى حدود مصر، وهناك أسرت جميع رجال هذه القبائل ونساءهم وأولادهم وبناتهم، كما استوليت على جميع ممتلكاتهم، ومن

بقيه هم رضي بالخضوع إلى، كما رضي بدفع الجزية، كما أرسلت حملة بحرية لمحاربة الأرابيت الذين كانوا يقطنون الضفة الأخرى من البحر الأحمر وقوضت عروشهم هناك. وأرغمهم على دفع الجزية عن أرضهم ولقد حاربتهم ابتداء من بلاد ليكوكومي حتى أراضي السبئيين وساعدني الإله العظيم القوى لأخضع لسطوتي جميع الشعوب التي تجاورني من الشرق إلى أقصى ما تمتد الأرض، ومن الغرب إلى أبعد ما يراه الإنسان. وأخيرة عدت إلى عدول حيث قدمت قرابين الشكر إلى أريوس وأرس وبوسيدون. بعد أن استرجعت جيوشى وجمعت شملهم جئت إلى هذا المكان وشيدت هذا العرش، وكان ذلك في السنة السابعة والعشرين من حكمى ».

وظلت إثيوبيا في القرن الثالث الميلادى دولة قوية تشرف على البحر الأحمر عن طريق ثغر عدول، وترسل سلع التجارة التي تزخر بها إلى غيرها من البلاد وخاصة بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق هذا البحر حينا وعن طريق البر الذي يمر بمكة ويثرب حينا آخر فكان يعنيها أن تسيطر على هذه الطرق، كى لا يعترض طريق التجارة معترض ما. وكانت اليمن وسبأ تكونان جزءا من هذا الطريق الذي يعني إثيوبيا السيطرة عليه والتحكم فيه.

وهناك من يقول إن سبأ كان اسماً لمكان ما في إثيوبيا في الزمن القديم حمله معهم المهاجرون الأولون الذين قدموا من اليمن في عصور

سابقة – واستقروا في إثيوبيا، على نحو ما فعلت القبائل العربية بعد الإسلام. فقد هاجرت هذه القبائل العربية بنظامها القبلي وسكنت أجزاء جديدة في مهاجرها الحديدة كالأندلس، وبلغ من حبها لمواطنها الأولى واعتزازها بها أن أطلقت على هذه الأجزاء الحديدة التي استقرت فيها أسماء الأماكن التي أتت منها في مواطنها الجديدة، ولكن هذا الاسم اختفي بعد قليل أو كثير من الزمن كما أختي غيره من الأسماء لسبب أو لآخر.

زواج الملكة من سليمان

إلى جانب هذا الجزء التاريخي من القصة يوجد الجزء الآخر وهو زواج الملكة من سليمان، وإنجابها منه ولد، ومجيء هذا الولد إلى أورشليم، ثم تتويجه بواسطة كل من أبيه والكهنة، ثم حمله تابوت العهد وما يحويه من ألواح إلى مملكته، ومطاردة سليمان له، وعدم نجاح هذه المطاردة وانتهاؤها باستقرار اللوح والتابوت في إثيوبيا كى تنتقل مملكة داود إلى هذه الأرض الجديدة.

وهذا الجزء لم يقم عليه دليل في الكتب السماوية أو غيرها من مصادر التاريخ، ولم يعثر على نقش أو أثر يؤيد جزءا أو أجزاء منها، ولذا لا يستطيع المؤرخ المنصف إلا أن يقف منه موقف المتحفظ، فهو في نظرنا موضوع حتى يقوم عليه دليل تاريخى يوثق به، ولذا لا نستطيع إلا أن نحاول تحليل ما بقي من هذه القصة لنعرف متى وضع ومن وضعه والغرض الذي وضع من أجله.

ولعلنا لا نستطيع أن نتكلم عن زمان وضعه أو شخصية الذي وضعه قبل أن تعرض للغرض الذي وقع لأجله وهذا الغرض واضح لا يحتاج إلى كثير من الجهد للكشف عنه، إذ هو إظهار حق أسرة معينة في العرش الإثيوبي، طبقا للقصة الأولى أو حق أسرتين معينتين، طبقا للقصة الثانية. وليس الغرض من هذه القصة إثبات هذا الحق

فحسب، بل إثباته بصفة قاطعة، مانعة، تحول دون أي محاولة للثورة على هذه الأسرة، بل تجعل مثل هذه المحاولة إن حدثت نوعا من الكفر أو تحدياً المشيئة الله، ما دامت إرادة الله قد شاءت أن تدفع بهذه الملكة إلى زيارة سلمان من أجل إنجاب هذا الولد الذي أصبح يستند في حقه في العرش الإثيوبي على حق إلهي.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا ألح الملك يوحنا الرابع على «إيرل جرائفل » وزير خارجية إنجلترا، أن يعيد إليه النسختين الخطيتين من كتاب «كبرا نجست » الاثنين كانت الحملة البريطانية على إثيوبيا قد استولت عليهما إثر هزيمة الملك تيودوروس الثاني في موقعة مجدلا، إذ كتب إليه يقول : « إن الشعب الإثيوبي لن يطيعني أو يخضع لي بدونهما ».

وكذلك عندما طلب المسيو « هيولورو » » مندوب فرنسا لدى جلالة الإمبراطور منليك الثاني إذنا بترجمة هذه المخطوطة إلى الفرنسية، أجابه جلالته : « إن الأسلحة وحدها لا تكفي للدفاع عن الدولة، ولكن الكتب أيضا. إن ما تتكلم عنه هو فخر دولت، وإنه لما يسرني، ويسر جميع أفراد الشعب الإثيوبي من فنازلا أن يترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية، ليعلم أصدقاؤنا أننا نعيش، وليعلموا أيضا أن الله أن يتركنا أبدا لأعدائنا ».

الملكة والرحلة الطويلة

هذا من ناحية الغرض الذي وضعت من أجله تلك القصة والقصتان. أما عن زمن وضع كل منهما فإن ما ذكر عن سبب سفر الملكة إلى أورشليم يكفي لمعرفة هذا الزمن على وجه التقريب. فإن قصة الثعبان – الذي ذكرته القصة الثانية – والذي كان يعبده أهل تجرى، ثم تعودهم التقرب إليه بفتاة وقدر من الخمر وآخر من اللبن، ثم تغلب الملكة على هذا الثعبان بمعونة القديسين السبعة، يجزم تمام الجزم بأن هذا الزمن بعد ظهور المسيحية بقرون ستة على أقل تقدير ؛ فهؤلاء القديسون الذين ذكرت أسماؤهم لم يصلوا إلى إثيوبيا إلا في القرن الخامس الميلادي.

ومن الواضح أيضا أن هذا الجزء لا يمت بصلة كبيرة إلى مجرى القصة، وأنه قد وضع، أو استعير لا لهدف سوى تشويق القارئ أو السامع إلى سباع بقية القصة، ثم إلى « خلق » السبب الذي من أجله قامت الملكة بهذه الرحلة الطويلة : لأنها «سمعت عن سليمان ومقدرته الطبية وعن قدرته على أن يفعل العجائب، فصممت على أن تذهب إليه ليعيد قدمها إلى حالتها الأولى ».

ولكن الشيء الهام الذي يحدد زمن وضع القصة على وجه الدقة

هو هذا الجزء من القصة الثانية الذي يروي أن الملكة قد صحبت معها في رحلتها وصيفتها، وأن سليمان قد تزوجها كما تزوج سيدتها، وأهدى إليها كما أهدي إلى الملكة قطعة من الفضة وخاتمة ومرآة، وأوصاها كما أوصى الملكة أن تبادر فترسل إليه ولدها الذي تنجبه. وتزيد القصة الثانية أيضا أن الوصيفة أنجبت ولداً كملكتها، وأرسلت هذا الولد مع أخيه إلى بيت المقدس، وأن هذا الولد أخفق في معرفة أبيه. ثم تتجاهل القصة هذا الولد تجاهلا تاما الأمر الذي يبدو غريبة غاية الغرابة، كأنه لم يذهب إلى أورشليم، فذكر هذا الجزء من القصة الثانية، بل إن تجاهله في القصة الأولى، ينبهنا إلى أهمية وضع هذا الجزء، وهذا الوضع لا بد أنه كان لغرض خاص حرص واضع القصة الأولى على تجاهله.

وهذا الشيء الذي يحرص أصحاب القصة الأولى على تجاهله هو حق غيرهم في ارتقاء العرش مهما كان هذا الحق ضعيفة، فإنجاب ولد آخر من امرأة أخرى يجعل لهذا الولد حقا في العرش.

ونحن نعرف من تفاصيل تاريخ إثيوبيا أن ملوك الأسرة السليمانية التي تجلس على العرش في الوقت الحاضر يقولون إنهم فقدوا العرش في القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر حين استرده من هذه الأسرة المغتصبة الإمبراطور يكونوا أملاك. وكانت الأسرة المغتصبة هي أسرة زاجوا التي يذكر كتاب «كبرانجست » أن ملوكها أحد عشر

ملكا حكموا مدة ثلاثة قرون، وأن أشهرهم وأكبرهم شأن هو سابعهم الملك لاليبالا الملقب يجبرا ماسقال الثاني وأن آخر ملوكهم هو نكويتا لآب الذي نزل عن العرش نزولا سلميا للإمبراطور يكونو أملاك سنة ١٢٨٠م.

فليس لنا إذن إلا أن نقطع بأن هذه الأسرة الزجوية التي اغتصبت العرش في القرن العاشر الميلادي، وتمكنت من الاحتفاظ به ثلاثة قرون كاملة، هي التي وضعت في القصة هذا الجزء، وأنها قصدت بذلك تأييد حقها في العرش وإظهار أن حقها فيه يستند إلى نفس الأسس التي يستند إليها حق الأسرة الأخرى. التي تفخر بانتسابها إلى منليك ابن ملكة سبأ من سلمان الذي لا يستند في حقه في العرش إلى كونه ابنة لهذه الملكة بل إلى كونه ابنة لسلمان. والولدان يستويان في هذه الصفة، ولا شأن لكون هذا الابن الثاني ابنة للوصيفة لا للملكة. بل أكدت القصة الثانية حقه في العرش أكثر من أمه حين جعلتها تنزل عن عرشها له، وما دامت الأسرة الأخرى قد ضعفت إلى حد عدم استطاعتها الاحتفاظ بالعرش في نسلها، فلن يكون هناك وارث طبيعي لها يستطيع المحافظة على العرش السليماني والمحافظة على تابوت العهد ولوحي الشريعة – إلا هذا الابن الثاني الذي لا يقل حقه في العرش عن حق الابن الأول. ومن هنا نستطيع أن نجزم أن زمن وضع القصة الثانية كان النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، حين احتاجت

هذه الأسرة الحديدة إلى تأييد حقها في العرش. وإن وضع هذه القصة الثانية كان سابقة لوضع القصة الأولى التي عنيت حين استردت العرش بإظهار حقها فيه. فهي في المدة السابقة لاغتصاب هذا الأسرة الزاجوية العرش، ثم استردادها إياه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر لم تكن في حاجة إلى ما يؤيد حقها في العرش ما دام العرش في يدها حقيقة واقعة.

وأكثر من هذا أن القصة الثانية عنيت بأن تظهر أن الملك منلياك لم يأت بتابوت العهد من أورشليم إلى أكسوم إلا بعد أن سرق وقتل ولجأ إلى الخديعة والغش، فإنه لم يتردد في إدخال الغفلة على أبيه من أجل أن يسرق التابوت، كما لم يتردد في قتل النجار الذي صنع له الصندوق، و إجبار الكهنة على الصلاة من أجل أن يرفعوا الصندوق، بل إنه لم يخرج من أورشليم إلا مطروداً بعد أن سم الشعب تضارب أحكامه مع أحكام أبيه. ولما كان أبوه معروفة بالحكمة وسداد الرأي فلا بد أن تكون أحكام هذا الملك الشاب أبعد ما تكون عن الحكمة وسداد الرأي.

كل هذا يجعلنا نعتقد أن الذي وضع النصف الثاني من هذه القصة الثانية هم أصحاب الأسرة التي اغتصب حقها مدة ثلاثة قرون، ثم نجحوا في استرداده ؛ أي أن القصة الثانية قد وضعت في عهدين : وضع أولها في عهد الأسرة الزاجوية المغتصبة، ووضع آخرها

في عهد الأسرة التي استردت العرش. بل إن هؤلاء الذين وضعوا النصف الثاني عنوا بأن يظهروا ابن سلمان الثاني بمظهر المهمل الذي لم يأخذ المرأة معه ليعرف وجه أبيه، وقد جوزي على هذه الغفلة بأن سلب حقه في العرش.

ولما كانت هذه الأسرة الزاجوية قد قامت في لاستا، وهي مدينة في تجرى، وكانت سلطتها في لاستا وتجرى أقوى منها في أي جزء آخر أدركنا لم تداول أهل تجرى هذه القصة دون غيرهم من أهل إثيوبيا.

ونلاحظ في القصة الثانية أنها بعد وصول التابوت إلى أكسوم واحتفاظ منليك به – لم تحاول أن تقدم لنا منليك في صورة الملك المحارب الذي ينجح في حكم دولته، ولم تحاول أن تصوره لنا بطلا كما تفعل القصة الأولى، فهي تريد أن تتجاهل هذا الملك بعد أن أدى الرسالة التي هيأه الله لأدائها، لأن دوره لم يكن أكثر من حمل تابوت العهد إلى إثيوبيا مما لا يجعل بحقه في العرش مؤيداً.

وإذا استطعنا أن نحدد بصورة تقريبية واضع هذه القصة و زمان وضعها، لأننا نعرف أن الأسرة الزاجوية حكمت ثلاثة قرون كاملة، بل على وجه التحديد ٣٤٣ سنة (٩٤٠ – ١٢٨٣) فإننا نستطيع أيضا أن يكون أكثر دقة، فنحاول أن نعين في أي جزء من هذه القرون الثلاثة بدأ وضع هذه القصة، فقد انتهزت فرصة ضعف

الأسرة الأولى، وعدم اتساع سلطة الملوك إلى أكثر من مدينة أكسوم وما حواليها، وقامت الأسرة الجديدة في لاستا، وهي منطقة متطرفة في غربي تجري، وجمعت حولها العناصر الغاضبة والتي أضرت بها الأسرة القديمة أو التي أضرت بها سيادة العناصر السامية، وهي قبائل الأجوا التي كانت تسكن أجزاء أجوامدر، وقبائل الفلشا. واستطاعت هذه العناصر مجتمعة أن تقضي على الأسرة القديمة وتنقل العاصمة من أكسوم إلى لاستا لتبدأ عهداً جديداً.

وكان العرش من نصيب الملكة چوديت، وقد استمر حكمها أربعين سنه (٩٤٠- ٩٨٠) فليس من المقبول عقلا أن تلجأ مثل هذه الملكة إلى اصطناع القصص التأييد عرشها، فالوسائل الشديدة العنيفة، بل المتناهية في الشدة والعنف التي لجأت إليها هذه الملكة لا تتسق مطلقا مع سياسة اصطناع قصة ما من أجل تأييد حق في عرش قد حصلت عليه فعلا بقومها وقوة من معها من جند وما معها من سلاح.

وخلف هذه الملكة الملك تكلاهيمانوت الذي سرعان ما تبين خطأ سياسة الملكة السابقة.

ورأى ما جرته سياستها على البلاد من السخط والتذمر وانتشارهما بين الشعب إلى درجة هددت الأمن والسلام، حتى خيف

أن يخرج الأمر من يدها، فلجأ إلى وسائل من شأنها القضاء على هذا السخط وإعادة الطمأنينة إلى نفوس الناس، فكانت العودة إلى المسيحية إحدى هذه الوسائل، وإعادة العلاقات الدينية مع مصر وسيلة أخرى، وتعاون الدولة، مع الكنيسة على بث الطمأنينة في النفوس ووسيلة ثالثة، ثم كان تأليف هذه القصة التي تثبت حتى الأسرة الجديدة في العرش مستندة إلى أصول عميقة تعود إلى ما قبل الميلاد بعشرة قرون وسيلة رابعة.

لذلك أرجح أن تكون هذه القصة التي روت زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك المقدس مصحوبة برئيسة حرسها، وأن سلمان رزق ولد من كلتهما، قد وضعت في هذا العصر. ولم يتورع منشي هذه القصة – وربما يكون راهبا إثيوبيا – عن أن يدخل في قصته أجزاء من قصص كانت متداولة بين المسيحيين وكانوا يؤمنون بها إيمانا لا يعتوره الشك مثل قصة الثعبان الذي يطلب العروس والابن والخمر، ثم التغلب عليه بقوة الإيمان أكثر من أي قوة أخرى.

وكانت هذه الوسائل مجتمعة كافية لأن تبعث القوة في هذه الأسرة الحديدة فيمتد حكمها خلال عهد الملوك من الثالث إلى السادس دون أن نسمع أو يسجل لنا التاريخ ثورة أو محاولة لثورة من أجل الانتقاض على هذه الأسرة، بل إن الأساطير تروي أن فردا واحدة من أبناء الأسرة القديمة نجا من المذبحة التي قضت على جميع

أفرادها وأنه استقر في شوا لا يستطيع أو يجرؤ على أن يرفع رأسه، لأن نفوذ الأسرة الحديدة التي تحكم في الاستا كان ساحقة، برغم ضعف الملوك القائمين بالأمر، فالمصادر كلها تجمع على أن السلطة الفعلية الملوك أسرة زاجوا لم تكن تتعدى منطقة سين، ولكن يبدو أن نفوذه الأدبي كان كبيرة إلى حد أن أرغم أعداءها على الانزواء، ولم يكن هذا النفوذ الأدبي إلا نتيجة هذه القصة التي تثبت حقهم في العرش والتي انتشرت بين أفراد الشعب عن طريق رجال الدين والقصاص الذين انبثوا في الشعب يروون له هذه الحقائق » التي لا يعتورها الشك. وأخيرا جاء الملك لاليبالا الذي اتخذ لنفسه اسم جبرا ماسقال الثاني فأكمل عمل تكلاهما نوت، فبني مجموعة كبيرة من الكنائس ووقف عليها الأراضي مما كان سبباً في تدعيم هذه الأسرة. وقد استعان هذا الملك على إتمام برنامجه الإنشائي مجموعة كبيرة من الفنانين المصريين والعمال المصريين.

ويبدو أن رجال الدين الذين نعموا بالهدوء والاطمئنان في عهد كل من تكلاهيمانوت ولاليبالا لم يكتفوا بما ترويه القصة، أو أنهم رأوا أن يدعموا هذه الأسرة أكثر مما دعمت، أو ربما رأوا بوادر ضعف قد سرت إليها، فرفعوا الملك الأخير إلى مرتبة القديسين، وصاغوا حول اسمه مجموعة من القصص والخرافات تجعله فوق مرتبة البشر، فقد عرف النحل ميعاد ولادته فتجمع حول والدته وسلم عليها سلام

الملك. ولم تكن هذه الجماعات من النحل سوى جماعات من الملائكة رأت أن تتخذ النحل صورة لها. وكان هذا الملك أيضا – كما تروي هذه القصص – مملوءة بالحكمة ومن روح الله، حتى لقد تآمر إخوته عليه لقتله بالسم فدسوا إليه لحمة مسمومة، ولكن الملائكة أنقذته وحملته على أجنحتها إلى السماء الأولى والثانية فالثالثة إلى السابعة حيث شاهد مجد الله بعينيه، فأمره – ﷻ – أن يبني عددا من الكنائس. ولم تقف مؤامرات الأعداء عند حد، فأخذت الملائكة على عاتقها أمر حمايته بإخفائه عنهم في الكهوف والمغارات، بل لم يترددوا في أن يقفوا إلى جانب العرش يحفظونه من أن يجلس عليه مغتصب، وحملته أيضا على أجنحتها إلى بيت المقدس لزيارتها، ولعل الصلة بين قصة زيارة الملكة لسليمان في أورشليم وهذه القصة الأخيرة واضحة لا تحتاج إلى برهان أو دليل.

وحكم بعد لاليبالا أربعة ملوك، ويبدو أنهم كانوا ضعاف كأسلافهم كما أنهم لم يقوموا بأية أعمال إنشائية تدر بعض الخير على الناس، فادت الأرض تحت أقدامهم، وأخذت السلطة تنتقل رويدا رويدا من أيديهم، حتى انتهى أمر أسرتهم نهائيا بقيام يكونو أملاك في سنة ١٢٨٣.

ولعلنا نلاحظ أيضا أثر الإسلام الواضح في هذه القصة، فقد عنيت بإظهار ما ذكره القرآن الكريم من كشف الملكة عن ساقها حين

حسبت أرض الهيكل مغمورة بالماء كي تتسق مع ما ذكره أولا من تحول قدم الملكة إلى قدم حمار ورغبتها في شفائها ثم رغبة الملك سلمان في رؤيتها دون أن يطلب منها ذلك. ويبدو أن المؤلف لم يفهم تماما ما جاء في القرآن الكريم، أو أنه أراد أن يعطى قطعة الخشب، أهمية أخرى علاوة على أهميتها الأولى في الدور الأول من القصة، فغمر أرض الهيكل بالماء ووضع الخشبة فيها.

ولا غرابة في تأثر أهل إثيوبيا بالإسلام، فقد كانوا. ولا يزالون أقرب الناس إلى سكان الجزيرة العربية وأكثرها استقبالا للعرب قبل الإسلام و بعده، حتى كانت هذه البلاد أولى الأجزاء التي سمعت عن قيام الإسلام وأولى البلاد التي فكر النبي ﷺ في أن يهاجر إليها المضطهدون من أنصاره، فيستقرون فيها زهاء ستة عشر عاما. فلا بد أن أجزاء كثيرة من إثيوبيا قد قطها المسلمون واختلطوا بالمسيحيين، فإذا ما جاء وقت تأليف هذه القصة كان أثر هذا الاختلاط واضحا، كما وضح هذا الأثر أيضا فما قيل عن حمل الملائكة للملك لاليبالا إلى القدس. وكذلك وضح هذا الأثر في القصة الأخرى حين عنيت بأن تذكر أن الملكة اكتشفت عن سليمان أنه كان يعرف لغة الحيوان والطير وأنه كان قويا يسيطر بقدرته على كل الأرواح والشياطين التي كانت تأتمر بأمره وأن شعب ملكة سبأ كان يعبد الشمس كما جاء في القرآن...

قصتان مختلفتان

والآن إلى القصة الأخرى لنحللها أيضا كما فعلنا في القصة الأولى :

ولعل أول ما نلاحظه على القصة الأخرى (الأولى في الترتيب الذي أوردناه) أنها لم تعن بقصة الثعبان، بل قصدت إلى الهدف مباشرة، وذكرت أن الملكة ماكيدا كانت واسعة الثروة والغني تملك الكثير من الذهب والفضة، وأنها سمعت عن حكمة سلمان فأعجبت به، وزرع الله في قلبها أن تذهب إلى بيت المقدس لترى هذا الملك العظيم وتتزود من حكمته. فلم يكن حب الثروة ولا الرغبة في الشهرة ولا الرغبة في معالجة نقص بها هي التي دفعتها إلى هذه الزيارة، بل حب الحكمة، وهو في ذاته غرض نبيل يرفع من قيمة الملكة في هذه القصة عن قيمتها في القصة الأخرى.

وتجاهلت القصة الأولى ذكر رئيسة الحرس وذهابها مع الملكة إلى أورشليم وزواج الملك بها وإنجابه منها، بل تجاهلت كل ما يتعلق بهذا الولد الثاني، ومن الواضح أن هذا التجاهل لا يدع لأحد حقا في العرش، بل حصر هذا الحق في شخص واحد هو هذا الابن الوحيد الذي أنجبته الملكة من سليمان؛ فكل من عداه وليس من نسله لاحق

له في العرش، بل هو مغتصب له.

وأصرت القصة الأولى على ذكر الحلم الذي رآه سلمان في منامه، بل أطال في ذكر هذا الحلم وتفاصيله، وأن الشمس سطعت في كبد السماء ثم سارت حتى وصلت إلى إثيوبيا واستقرت هناك. ومعروف أن هذه الشمس تمثل انتقال الأسرة والعرش إلى بلد جديد، الأمر الذي أثار رعب سليمان فكاشف به رئيس الكهنة، فلم يكن رعب هذا الأخير أقل من رعب الملك.

وأظهرت هذه القصة أيضا كيف صحب صادوق الكاهن الأكبر منليك إلى الهيكل وأدخله إلى قدس الأقداس حيث المس المذبح وأعلنه ملكة، ثم أركب بغلة سلمان وطيف به في المدينة بين هتافات الشعب، في حين اكتفت القصة الأخرى بأن ذكرت أن سلمان توجه ملكة، وأجلسه على العرش. والفرق بين النصين ظاهر، فالمقصود بالنص الأول اشتراك السلطتين الدينية والزمنية في هذا الاختيار بل قد اتخذت في القصة كل مظاهر التتويج من إعلانه ملكة في الهيكل، ثم خروجه في موكب رسمي يركب فيه بغلة سلمان، وطوافه بالمدينة، ثم استقبال الشعب وترحيبه به.

وأكثر من هذا كله أن القصة الأولى عنيت أكثر ما يكون بأن تظهر أن من فكر في «سرقة » التابوت عن طريق الخداع والسير في

إجراءات هذا الخداع لم يكن منليك نفسه، فتنزهه

عن ارتكاب كل هذه الأفعال التي لا تليق بالملوك، بل كان الذي فعل ذلك هم الكهنة الذين صحبوه في رحلته بالاتفاق مع أبكار رجال الدولة، فقد اجتمعوا من تلقاء أنفسهم وصمموا على أن يحملوا هذا التابوت دون أن يدرى أحد بفعلتهم، ودون أن يستشيروا منليك أو أن يشترك معهم في شيء من تفاصيله، ودون أن يقتل أحدة أو يخدع أحدة أو يأتي ما تأباه الشرائع والقوانين الوضعية أو السماوية ؛ بل فوجي منليك بالتابوت بعد أن وصل إلى مصر، فلم يملك إلا أن يسجد له مع الساجدين، على حين وقف رفاقه يصفقون ويرقصون.

كذلك أظهرت القصة الأولى أن منليك لم يحاول الهرب من أبيه أو خديعته، بل استأذنه في الرحلة، فأذن له وقبله ومنحه بركته، وأعطاه الغطاء القديم للتابوت.

وشيء آخر هام عنيت القصة بإظهاره، وهو جمع الملكة الأعيان الدولة ووجهائها وقسمهم أمامها على أن لا يجعلوا عليهم مستقبلا ملكة مطلقاً، وأن لا يقبلوا عليهم ملكة في المستقبل الا يكون من نسل داود بن سليمان، ثم إقبال الجميع على هذا القسم فرحين به.

وكذلك أظهرت هذه القصة أيضا أن الملكة هي التي عينت عازار بن صادوق كاهنا أعظم للدولة، ومعنى ذلك – ولا شك –

خضوع السلطة الدينية للسلطة الزمنية إذ أن الجالس على العرش هو الذي يعينه في مركزه.

وكذلك عنيت القصة الأولى بأن تظهر منليك بأنه هو الذي نظم دولته على نحو مملكة أبيه، كما نظم قوانينها وفقا الشريعة الموسوية، وأنه حاول من هذا كله أن يجعل من مملكته مثالا لمملكة أبيه، وبذلك يكون الملك هو صاحب السلطة التشريعية والتنفيذية العليا في الدولة، وليست هناك سلطة أخرى تملك شيئا من التشريع أو التنفيذ.

وأخيرا عنيت القصة الأولى بأن تقدم منليك إلى الشعب ملكة شجاعة اشترك في حروب كثيرة خرج منها جميعا منتصر، ثم إظهار أعدائه بأنهم كانوا أناسا لهم ذيول كذيول الحمير!

هذه كلها فروق في القصتين لم توضع عبثاً، بل قصد بكل واحد منها إلى هدف معين، فإظهار الملكة بمظهر الغنية التي تملك الكثير من الذهب والفضة يجعلها –كما ذكرنا – لا تهدف إلا لغرض نبيل، كما يظهر أنها تقوم بهذه الزيارة لأن الله أراد أن يرزقها ولداً من سلمان يرث والده في الحكم، وأن الله هو الذي أراد أن ينقل بيت داود من أورشليم إلى إثيوبيا.

وشاء الله أيضاً أن يجعل منليك يرتقى العرش ارتقاء صحيحة ترضى عنه السلطات المدنية والدينية، بل أن يتبع في ارتقاء العرش

جميع الطقوس الدينية الصحيحة التي ﷺ قبل أن يظهر غضبه على إسرائيل، كما أن مثليك هذا كان في كل تصرفاته مثلا للابن الصالح الذي يرضي عنه والده، ولم يحاول أحد منهما تخطئة رأي الآخر. فكان الاثنان معا مثالا للمحكمة البالغة التي زرعها الله فيهما، كما أن منليك لم يحاول أن يخدع أحدة أو يرتكب إثما في سبيل هدف ما، وأنه إلى وقت سفره كان مباركة من سليمان حتى لقد أهداه غطاء التابوت.

وقسم أعيان الدولة و وجهائها أن لا يجعلوا عليهم في المستقبل ملكة، مقصود به إظهار اغتصاب أسرة زاجوا لعرش لم يكن لهم حق فيه، لا سيما أنه لم يصحب الملكة في سفرها أحد من يستطيع أن ينجب ولداً ثانية السليمان. وإذا كانت الملكة چوديت أولى ملوك الأسرة الزاجوية قد ارتقت العرش الإثيوبي في القرن العاشر، فقد كانت مغتصبة للعرش، وبذلك أصبحت كل أسرتها ومن تولى العرش من بعدها من ملوك هذه الأسرة مغتصبين له أيضا، بل إن كل من يرتقي هذا العرش في المستقبل من غير الأسرة السليمانية مغتصب للعرش، لأن إرادة الله هي التي شاءت أن تجعل عرش إثيوبيا من حق هذا الابن ونسله من الذكور دون غيرهم ؛ وكل من يحاول ذلك إنما يقف أمام إرادة الله، بل يعارض إرادة شعب بأكمله، كما يعارض قسما أقسمه الشعب ممثلا في ذوي المكانة منه عن رضا وارتياح. ومن أجل هذا الغرض نصت المادة الخامسة من دستور سنة ١٩٥٥ على أن "نظام

الوراثة ينحصر في الذكور المولودين من زواج شرعى".

وطبقا لهذه القصة أيضا لا يملك أحد من الشعب حقا بجانب حقوق الملك، فهو الوحيد الذي يملك حق التشريع والتنظيم هذه الدولة، وكل قانون أو تشريع أو تنظيم أو تنفيذ لا بد أن يصدر عن الملك بمحض إرادته، بل إن هذه التنظيمات والقوانين التي يضعها الملك للدولة إنما هي تشريعات إلهية لا تصدر إلا وفقا لقوانين سماوية لا يملك أحد حقي معارضتها أو نقضها أو الخروج عليها.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا ذكر الإمبراطور في خطابه الذي وجهه إلى « الأمراء والأعيان والأساقفة ورؤساء الكنيسة » في التاسع من هملى سنة ١٩٢٣ (١٩٣١ م)، والذي أعلن بمقتضاه صدور الدستور الأول أن « أفكاره التي اتجهت إلى مصالح إثيوبيا ومصالح شعبها المحبوب هي التي تتجه الآن إلى أن يمنح شعبه دستوراً، وإنه من أجل سعادة الشعب وأمه يمنحه هذا الدستور دون أن يسأله أحد أو يطلب منه إصداره ».

كما نصت المادة الحادية والتسعون من الدستور الجديد الصادر في سنة ١٩٥٥ على أن الإمبراطور (يملك في حالة عدم اتفاق مجلس النواب والشيوخ على تشريع ما. أن يضع مشروعة جديدة يختلف عن مشروعي المجلسين »..

بل إن الملك – وفقا لهذه القصة – لا بد له أن يدافع عن هذه القوانين وعن هذه النظم بكل ما يملك من قوة، منها قوة السلاح. وإن من يخرج عن إرادته أو يقف في وجهه معارضة إنما هو حمار أو كالحمار!

ومن هذا كله نستطيع أن نشير بيدنا الآن إلى من وضع هذه القصة الأخرى، ومتى وضعها ؛ ولماذا وضعها ؟ فجميع الأدلة تشير إلى شخص واحد ووقت واحد وغرض واحد، وهو يكونو أملاك الذي «استرد » العرش الإثيوبي كما تقول الأساطير الإثيوبية في القرن الثالث عشر الميلادي، لتثبيت حقه وحق أسرته في العرش وانتزاع كل وهم يتجه إلى شخص آخر أو أسرة أخرى.

ونحن نعرف من حوادث التاريخ الإثيوبي أن يكونو أملاك عند ما ظهر في القرن الثالث عشر حرص على أن يظهر نفسه بأنه سليل الأسرة السليمانية القديمة، ويذكر أنه كان مختفية في إقليم شوا. وأنه لم يكد يظهر معلنة دعوته حتى لجأ إلى وسائل مختلفة تعينه على بلوغ غرضه وكانت هذه الوسائل هي :

١– عقد اتفاقا مع (أبونا) تكلاهيمانوت الذي كان رئيساً الدير دبرا ليبانوس، ينص على : أن يمنحه رجال الدين وعلى رأسهم تكلاهيمانوت تأييدهم وتأييد الجماهير التي تتأثر بهم ؛ وأن يهب

يكونو أملاك ثلث أراضي الدولة للكنيسة للصرف عليها وعلى رجال الدين والمنشئات الدينية في البلاد، وأن ينصب تكلاهيمانوت رئيسة للإكليروس الإثيوبي ويحظى بلقب يؤيد هذه الرئاسة ولا يتمتع به أحد غيره، وهو الإتشيجى، كما تمتع بسلطات لا يتمتع بها أحد غيره من رجال الدين الإثيوبيين.

وتذكر الأساطير الإثيوبية التي تروي تاريخ هذه الفترة أن « يكونو أملاك كان محبا للرب، و بسبب حكمته ذهب إلى تكلاهيمانوت وجعله أمينة على مملكته كى يقويه الرب على جميع أبناء إسرائيل، فصلى تكلا هيمانوت وطلب من الرب – مصدر كل قوة فصنع سلامة بينه وبين الرب، فحينئذ ذهب يكونو أملاك إلى أبينا تكلاهما نوت مصدر كل النور ورئيس الكهنة. وأعطاه ثلاث مملكة إثيوبيا وحكم خمس عشرة سنة ».

وواضح من هذا النص اتفاق السلطتين الزمنية والدينية على منح العرش الإثيوبي ليكونو أملاك، ومباركة رئيس الكهنة لهذا العمل، وهو نفس ما روته القصة من رضي عازار ابن صادوق رئيس كهنة أورشليم على تنصيب منليك ملكة، ثم قيام عازار رئيس الكهنة في المملكة الحديدة بهذا العمل بعد أن عينته ماكيدا أم الملك.

وفي سبيل تنفيذ هذا الاتفاق لم يكد يكونو أملاك يعلن نفسه

«نجوس نجست » لإثيوبيا حتى أعلن تكلاهما نوت من جانبه أنه قد توصل إلى عقد اتفاق سلمي مع آخر ملوك الأسرة الزاجوية، وهو نكويتالاب، على أن ينزل عن التاج واللقب للأسرة السليمانية في شوا مع احتفاظه ونسله بلقب « نجوس» وجزء من ولاية الاستا. على أن تكون أرضه معفاة من الضرائب، كما يحق له أن يجلس على عرش ذهبي مماثل العرش الإمبراطور، وأن تكون له شارات ملكية مصنوعة من الفضة، وكذلك سنان رمحه، وأن تكون له طبول محلاة بالفضة أيضا.

وكوفي أبونا تكلاهيمانوت على هذه المساعدة بأن نصبه يكونو أملاك إتش جي، أي رئيسة للإكليروس الوطني ؛ ورفعته الأسرة السليمانية فيما بعد إلى مرتبة القديسين، وألفت في حياته كتاباً ضخماً ذكرت فيه أنه من نسل عازار بن صادوق الكاهن الذي أرسله سليمان مع ابنه منليك ليكون كاهن مملكته الجديدة، والذي دبر مسألة نقل تابوت العهد من أورشليم إلى إثيوبيا. كما أحيط تكلاهيمانوت بمختلف الأساطير التي ترفع من قيمته، فقد بشر الملاك والديه العاقرين بولادته، و وقعت أمه مرة في أسر حاكم داموت وأراد أن يتخذها زوجة له، لولا أنه رأى برقة وسمع رعد، وزلزلت الأرض فجن وقتل حرسه وظل مجنونة خمسة وعشرين سنة حتى ولد القديس تكلا هيمانوت وكبر وترحب وشفاه من مرضه!

ولما وضعته أمه سماه الملاك لها تكلا هيمانوت، وبعد ثلاثة أيام من ولادته نزل عليه الروح القدس، فصنع المعجزات قبل أن يبلغ الشهر الخامس عشر، ولما بلغ السنة السابعة من عمره كان قد حفظ المزامير والعهدين القديم والحديد، وصارت له قدرة على إخراج الشياطين وعمل المعجزات و إحياء الموتى.

وقد ساعد تكلاهيمانوت، بنفوذه ونفوذ الكهنة الذين يخضعون له على نشر الدعاية ليكونو أملاك في مختلف أنحاء الدولة، حتى استطاع أن يجمع جنوداً بلغت ست فرق سارت بقيادة مالزاى رئيس الجند الذي باركه تكلاهيمانوت، واستطاعت هذه الجيوش أن ترغم الملك الزاجوي على تنفيذ الاتفاق النهي كان قد وقعه مع أبينا تكلاهيمانوت.

ب- وكانت الوسيلة الثانية التي لجأ إليها يكونو أملاك هي أنه أرسل إلى مصر يطاب إعادة العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية، وكانت هذه العلاقات الدينية قد قطعت منذ عشرين سنة تقريبا ظل فيها منصب المطران شاغراً، ومات فيها كثير من رجال الدين، واضطر الناس خلالها إلى أن يتزوجوا دون اللجوء إلى الكنيسة، وأن يدفنوا موتاهم دون الصلاة عليهم، وأن يهملوا تعميد أولادهم، بل أن يهملوا أيضا الذهاب إلى الكنائس والقيام بالطقوس الدينية والمدنية، فأرسل يكونو أملاك في سنة ١٢٧٤ إلى بطريرك الإسكندرية أثناسيوس

الثالث يطلب مطراناً، كما أرسل خطابة ثانية – على نحو ما جرت العادة منذ الفتح الإسلامي – إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري يستأذنه في أن يسمح للبطريرك باختيار مطران وتعيينه.

بل إن الإمبراطور يكونو أملاك لم يتردد في أن يذل نفسه إلى السلطان الظاهر فيصف نفسه بعبارات ذليلة حين قال له في خطابه : « أقل المماليك يقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه..... وأقل المماليك يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب الملك ما يلزمه وهو يسيره إلى مولانا السلطان »

ويبدو أن يكونو أملاك لم يرسل هذا الخطاب بواسطة رسول خاص إلى البطريرك أو إلى السلطان ولا مشفوعة بالهدايا التي كان من عادة ملوك إثيوبيا أن يرسلوها إلى كل من السلطان والبطريرك، بل اكتفي بإرساله إلى الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول صاحب اليمين – وكانت تابعة لمصر آنذاك – وتولى هذا إرساله إلى مصر بعد أن احتجز الرسول في العين منتظرة أوامر بشأنه من السلطان الظاهر أو منتظر ورود الود ليحمله إلى مولاه.

ولهذا السبب ولأسباب أخرى رفض السلطان الظاهر بيبرس السماح للبطريرك بتعيين مطران، بل أرسل إلى يكونو أملاك ردا جافا علل فيه رفضه بعدم وصول رسول من الإمبراطور كى يكون الاختيار

بوجوده كما جرت العادة، مع على السلطان أن رسول الإمبراطور قد احتجزه تابعه صاحب اليمن.

ورأى يكونو أملاك انهيار آماله التي بناها على ورود المطران وهي تتويجه بسلطة دينية شرعية تملك سلطة هذا التتويج، الأمر الذي لم يكن يملكه تكلاهيمانوت ولا غيره من رجال الدين الإثيوبيين، فحاول أن يجرب وساطة الدولة الرومانية الشرقية فكتب إلى إمبراطورها باليولوجوس (١٢٦١ – ١٢٨٢) كتابة يسأله هذه الوساطة، وأرسل له في سبيل ذلك هدية هي بضع زرافات. ولكن هذا الأخير لم يكن في حالة تسمح له بحرية العمل، فقد كانت صلته بمصر مقطوعة، كما أن حالة الدولة الداخلية كانت أسوأ من أن تترك له فرصة يلتفت فيها إلى عمل خارجى آخر، فقد استرد القسطنطينية من الاحتلال اللاتيني، وكان أمامه من المشكلات والنفقات ما فوق طاقته.

وكان هذا الرد غير المنتظر من مصر. والإخفاق في وساطة إمبراطور الدولة الرومانية قد أفقدا يكونو أملاك أعصابه، إذ كان ينتظر وصول المطران بفارغ صبر، و يعلق على وصوله الآمال الكبار، وربما ضيع عدم وصوله كل ما بذله وما نجح فيه حتى الآن، بل ربما يكون انتشار خبر رفض البطريرك تعيين مطران معناه عدم اعترافه به إمبراطورة مما يعجل بانفضاض الناس من حوله وظهور رءوس لفتنة جديدة وارتفاع أسهم الأسرة القديمة أو غيرها، فلجأ إلى مطران القدس

يوسطه أيضا، وكان هذا قبطيا مصريا لأول مرة، ولكن هذه الوساطة لم تنجح أيضا، فلجأ – بعد أن تعقدت الأمور إلى هذا الحد وأنذرت بالخطر – إلى بطريرك أنطاكية السرياني الأرثوذكسي المذهب يطلب منه تعيين مطران سرياني، فبادر هذا بإرسال مطران يدعي تيودوسيوس لشغل المنصب، ولكن هذا الاتجاه لم يكن ليخدع الشعب الشديد التمسك بمذهبه الشديد التعلق بتبعيته لبطريرك الإسكندرية، مهما يحدث من خلاف كان يؤدي في بعض الأحيان إلى طرد المطران، ومهما ارتكب المطران من أعمال تؤدي إلى إغضاب كثير من الإثيوبيين، أو مهما انقطعت الصلة بينه وبين بطريرك الإسكندرية. بل يبدو أن رجال الدين الإثيوبيين تذمروا من هذه الخطوة، ووصل تذمرهم إلى حد الثورة على الإمبراطور، فكاتبوا البطريرك الجديد في الإسكندرية (يؤنس الثامن في ذلك، وربما حاولوا استصدار قرار بطريركى بحرمان الإمبراطور.

د– ولجأ يكونو أملاك إلى وسيلة ثالثة وهي استعمال القوة لإرغام آخر ملوك أسرة زاجوا على تنفيذ اتفاق النزول عن العرش، ولسحق كل من تحدثه نفسه بالثورة على الإمبراطور الحديد، فلجأ من أجل ذلك إلى التجار المسلمين يستنجدهم، وكان هؤلاء على نصيب كبير من القوة والثروة بفضل هذه التجارة الواسعة التي كانوا يدبرون أمرهما سواء في المحيط الهندي أو البحر الأحمر، فقد كانوا هم الذين

يتولون نقل التجارة الهندية – بعد أن يتولى التجار الهنود نقلها من مواطنها إلى عدن بسفنهم الضخمة – إلى مواني شرق إفريقية وإلى مواني إثيوبيا والسودان ومصر المطلة على البحر الأحمر ؛ بل كانوا يتولون نقلها أيضا إلى بقية أجزاء إفريقية، وكان لهم من أجل ذلك أساطيل بحرية ضخمة وجيوش منظمة قوية تحمل أحدث ما وصل إليه العلم آنذاك من سلاح.

وكان أن عقد يكونو أملاك مع أحد هؤلاء التجار ويدعى عمر ولسمع اتفاقا نص على أن يقدم هذا التاجر مساعدته المالية والحربية إلى يكونو أملاك حتى يتمكن من تنصيب نفسه إمبراطورة على إثيوبيا، فإذا نجح في ذلك نصب عمر ولسمع سلطانة لسلطنة إيفات المسلمة التي تقع في شرق إثيوبيا وتطل على البحر الأحمر عن طريق ميناء زيلع، كما يمنحه حرية الإغارة على مملكة شوا الإسلامية التي كانت قائمة في شرق إثيوبيا أيضا منذ أكثر من ثلاثة قرون ويحكمها حكام وملوك مسلمون وتتمتع بنصيب كبير من الاستقلال، كما يمنحه رياسة الأجزاء الإسلامية من دولته على أن يكون بعد ذلك خاضعة لسلطة الإمبراطور.

وقام عمر ولسمع بما يوجبه عليه الاتفاق، وانضم إلى يكونو أملاك ومعه عدد كاف من الجنود المسلمين المسلحين وصل – كما تقول رواية يكونو أملاك نفسه كما جاء في كتابه إلى الظاهر بيبرس –

إلى عشرة آلاف فارس، وكون منها – إلى جانب ما استطاع رجال الدين الإثيوبيون أن يجمعوه له بإرشاد تكلاهيمانوت – ما مكنه من تنفيذ أهدافه. وجلس أخيرة على العرش الإثيوبي إمبراطورة في سنة ١٢٦٨ م... وانصرف عمر ولسمع إلى مهاجمة ملك شوا الإسلامية، فهاجمها أربع مرات بقيادته أحيانا، و بقيادة أولاده أحيانا أخرى، كما كان يدفع أمراء هذه الدولة إلى الوقوف في وجه سلطانها ويؤيدهم بالرجال والمال، مستندة في ذلك إلى مصاهرته لأحد هؤلاء الأمراء. وفي هذه الغزوات الأربع خرب مملكة شوا تخريب شاملا وأحرق عاصمتها، وأرغم رجالها على الهرب من وجهه حتى انتهى الأمر إلى ضمها إلى إيفات سنة ٦٨٧ هـ ١٢٨٨ م بعد موت يكونو أملاك بثلاث سنوات.

فهل نستبعد أن يلجأ يكونو أملاك إلى سلاح الدعاية يستخدمه ليثبت حقه في العرش، فيضع هذه القصة التي تظهر أن ما يبذله من الجهد للجلوس على العرش الإثيوبي ليس إلا من أجل استعادة حق اغتصبه المغتصبون قبل ذلك بقرون ثلاثة، وأن حق هؤلاء المغتصبين – وإن طالت مدتهم – إلا برقي إلى حقه، وأن الوارث الطبيعي جاء ليسترد حقه المسلوب ؟ وكان في وضعه لهذه القصة في شكلها الجديد سالبة كل حق من الأسرة القديمة، بل مظهرا إياهم بأنهم اغتصبوا شيئا لم يكن لهم فيه أدني حق أو شبهة من حق، وأن هذه القصة التي يستند

إليها هؤلاء الملوك الزاجويون إنما هي قصة مخترعة أضافوا إلى أصلها أشياء لم تكن فيها، وحذفوا منها أشياء لم يكن من حقهم أن يستبعدوها لأنها تسند حقا لم يكن لهم، وأن القصة الحقيقية للزيارة إنما هي تلك التي يذيعها هو.

ولعل إخفاق يكونو أملاك في سياسة استقدام مطران مصري جديد، ثم محاولة استقدام مطران أرثوذكسي آخر وإن كان غير تابع لكرسي الإسكندرية ذي العلاقات التقليدية، ثم عدم رضا الشعب عن هذه الخطوة الجريئة التي رآها فصلا بينه وبين كنيسته التقليدية المحبوبة، وعدم رضا رجال الدين عن هذا كله، هو الذي شجعه على اختراع هذه القصة وعلى إعطائها هذه الصورة التي يرغب فيها والتي تؤيد حقه وتسلب الآخرين حقهم.

ويؤيد هذا ما فعله يكونو أملاك لأول مرة في التاريخ الإثيوبي من إنشائه ما نستطيع أن نسميه « ديوان التأريخ » مهمته تسجيل الحوادث الهامة التي تقع وترتيبها وإذاعتها. فهل نستبعد أن يقوم هذا الديوان أو هذه الإدارة بمهمة وضع هذه القصة في الشكل الذي يتلاءم مع الهدف الذي يسعى إليه الإمبراطور ؟

انتشار القصة

وأخذ يكونو أملاك ينشر هذه القصة بمختلف وسائل النشر، فكان رجال الدين من هذه الوسائل، فأخذوا يرددونها في مجتمعاتهم ويكثرون من ترديدها كلما اجتمعوا مع أفراد الشعب، كي يجعلوه يؤمن بما جاء بها. وكان تكلاهيمانوت و رياسته الجديدة على رجال الدين أكبر عون على هذا الذيوع. وأخذ الرهبان في الأديرة المختلفة بفضل المنحة التي وهبها إياهم، وهي ثلث أراضي الدولة، يكتبون هذه القصة ويكثرون من كتابتها في مخطوطاتهم، ويرسلون هذه المخطوطات إلى مختلف الكنائس كى يقرأها أفراد الشعب أو يقرأها الكهنة للشعب أو يعلموها للصغار في المدارس والكتاتيب الملحقة بالكنائس والأديرة. ولا بد أن هذه المنحة قد هيأت الظروف لكثير من الناس أن ينضموا إلى صفوف الرهبان ورجال الدين بعد أن رأوهم يتنعمون بما لم يكونوا يتنعمون به من قبل، فكثر عددهم في الأديرة القائمة، بل كثر عدد الأديرة في طول البلاد وعرضها وأقبل الإثيوبيون يلتحقون بها، فكانت هذه الوسائل هي الأداة التي مكنت يكونو أملاك من نشر القصة وإذاعتها.

ولجأ يكونو أملاك إلى الشعراء والمنشدين يدفع إليهم أو يدفع بهم إلى من يحفظهم هذه القصة، ثم يطلقهم ينشدونها في معابر الطرق

وزوايا الشوارع وفي سهرات الإثيوبيين وحفلاتهم وما تهم وأفراحهم، وكلها مجتمعات تضم أشتاتا مختلفة من الناس أياما قد تطول إلى أربعين يوما بل إلى عام كامل في بعض الأوقات على نحو ما جرت به عادة القوم في تلك الأيام. فكانت كلها فرصة تتيح لهؤلاء الشعراء والكهنة والرهبان و رجال الدين أن يبلغوا من غرضهم ما يريدون وما يريد سيدهم أن يبلغ.

وكان للإثيوبيين من الظروف الطبيعية ما يساعد على سرعة انتشار هذه القصة، فهم شعب مرح يحب الغناء والطرب ويميل إليه، وعندهم كثير من الآلات الموسيقية تساعدهم على توقيع الألحان مصحوبة بالغناء، بل كان لهم من الآلات الموسيقية ما يساعد الشاعر أو المنشد على ترديد القصص وأعمال البطولة لمن يحبونهم من الأبطال والشجعان. فإذا ما أظلمت الدنيا وأقبل الليل كون الإثيوبيون في بيوم الحلقات المختلطة من الرجال والنساء، وأقبلوا على مشروبهم الوطني الذي يصنعونه من الشعير أو العسل يرشفونه رشفة بل يعبونه عبا في كميات كبيرة، فتميل نفوسهم إلى سماع الشاعر ضاربة على آلته الموسيقية مترنمة بالشعر والقصص على نحو ما يفعل الفلاحون المصريون في الوقت الحاضر.

وكان فصل المطر الذي يستمر أربعة أشهر أو أكثر في بعض الأحيان فرصة أخرى لانتشار هذه القصص وأشباهها بينهم، فمن

عادتهم أن يهيئوا أنفسهم كل عام لقدوم هذا الفصل، فيختزنون من المواد الغذائية ما يكفيهم طوال هذه المدة التي يقضونها في بيوتهم ما دام المطر ينهمر طول الليل وجزءا كبيرا من النهار فلا يمكنهم من رعى مواشيهم أو الابتعاد بها عن مواطنهم، ولا يمكنهم من زراعة أرضهم، ويحول دون الانتقال أو السفر إلى قرى غير قراهم، فليس لهم إلا أن يقضوا هذا الفصل الطويل في كسل دائم يقبلون فيه على طعامهم وشرابهم وإلى ما يحبونه من التجمع حول الشاعر، يسمعون منه ما تميل إليه نفوسهم من قصص الأبطال.

وكانت هذه الأوقات أيضا فرصة لرجال الدين ليترددوا على أبنائهم في بيوتهم يسمعونهم من هذه القصة ما تصبو إليه نفوس الشعب، وما يرغب الكهنة في ترديده من قصص تزيد من سلطانهم فيجزون عنها خير الجزاء.

وعمد يكونو أملاك إلى الرسامين أيضا ينقدهم مكافآت جزيلة فيقومون برسم تفاصيل هذه القصة في صور صغيرة متلاحقة متلاصقة على قطع كبيرة من الجلد أو القماش أو الورق، و يلونوها بالألوان الصارخة التي تستهوى الناس فيقبلون على شرائها. وما زال هؤلاء الرسامون يقومون بعملهم هذا حتى الآن. وقد تبلغ تفاصيل القصة من الكثرة درجة تؤهل الرسام لأن يردم عددا من الصور تبلغ المائة عدا يجعلونها خطوطاً منتظمة لتروي وقائع القصة في إسهاب وتفصيل دون

أن يتركوا منها شاردة ولا واردة.

ولم يكن يكونو أملاك في هذا العمل مخترعة ولا مبتدعة، فقد سبقه ملوك الأسرة الزاجوية في وضع القصة، بعد أن استندوا في وضعها إلى ما جاء بالكتب السماوية من أصل تاريخى لزيارة من كانت تسمى بملكة سبأ لسلمان ملك بيت المقدس في عاصمته. ثم أكملوا القصة بما وجدوه في كتب السير والقصص المتداولة، واختاروا منها ما يشتهون. فاستند يكونو أملاك على هذه القصة : أخذ أكثرها، وحذف منها ما لا يروقه أو يتفق مع غرضه، وأضاف إليها أجزاء تتفق وهذا الغرض.

ولم يكن ما ورد في الكتب السماوية، ولا ما روته القصة الأولى، هي المصدر الوحيد الذي استند عليه في روايته لقصته وتأليفها، بل كان هناك أيضا ما يردده سكان أجزاء أخرى من إثيوبيا عن قصة ملكة "الحبشة"، التي كانت حاملا، ورأت عنزة سمينة فنظرت إليها واشتهتها، وقالت : ما أسمن هذا الحيوان! وما أسمن أقدامه! ولما أتت أيامها ولدت طفلة جميلة، إحدى قدميها قدم عنزة، وعند ما كبرت هذه الفتاة وأصبحت تصلح للزواج أعرض عنها الناس بسبب قدمها، وظلت هذه الفتاة عذراء حتى ارتقت العرش وسمعت عن سلمان وحكمته ومقدرته في شفاء جميع الأمراض والعلل، فأرادت أن تسافر إليه لأن إرادة الرب كانت أن يستمر ملاك داود إلى نهاية العالم، فقد

أقسم الرب لداود أن نسله لن يفي، وسيجلس هذا النسل على العرش ما دام يحافظ على اللوح والشريعة، وما أسهل أن يحمل هذا اللوح وهذه الشريعة إلى إثيوبيا!

وهذه القصة الحديدة لا تختلف عن القصة الثانية التي أوردناها في أول هذا البحث إلا في هذه المقدمة، ويبدو أن واضع هذه القصة الحديدة رأى أن مقدمة الأولى عن بناء الهيكل، ثم عن هذه الفتاة التي خلصها القديسون السبعة من الثعبان الشره، مما لا يثير اهتمام الناس لما فيها من خرافة ظاهرة فأهملها واستبدل بها هذا «الوحم، الذي يصيب الحبالى في الشرق وغير الشرق، والذي يدفع بالنساء إلى طلب المستحيل مخافة أن يصيبهن ما أصاب هذه الفتاة.

ولم يكتف مؤلفو هذه القصة أيام يكونو أملاك بهذه المصادر، بل اتخذوا أيضا مما يردده المسلمون القاطنون في شرق الحبشة عما ورد في القرآن الكريم عن ملكة سبأ وزيارتها لسليمان، فقد كانوا يضعون لهذه الملكة اسم بلقيس، ويجعلونها ملكة على اليمين، ويزيدون على ما ورد في القرآن الكريم ما ردده المفسرون والقصاص من أنها أرسلت هديتها الأولى إلى سلمان خمسمائة رجل وخمسمائة جارية بعد أن أليست الرجال ملابس النساء والحواري ملابس الرجال، وحملوا معهم خمسمائة أوقية من الذهب وتاجاً مرصعاً وقدراً كبيراً من المسك والعنبر والتوابل والأخشاب الثمينة، وأسرع الهدهد إلى سيده ليخبره بما حدث

وبأن سفارة من الملكة في طريقها إليه، فلما وصلوا استقبالهم سليمان في ميدان فسيح يحيط به حائط حجارته من ذهب وفضة، وأمرهم أن يعودوا من حيث أتوا ويقولوا لسيدهم إن سلمان قادر على أن يرسل اللهم جيشا لا يقاوم. فلما عرفت بالقيس ذلك عولت على أن تذهب بنفسها لتقدم له خضوعها، وخرجت تقصد أورشليم يصحبها جيش كبير، وهناك وهبته نفسها، وندمت على عبادتها للشمس وأسلمت.

وكان المصريون وبخاصة مسيحيوهم ورهبانهم الذين عاش بعضهم في الأديرة الإثيوبية أو اختلط بهم الرهبان الإثيوبيون في الأديرة المصرية، يرددون ما جاء في العهد القديم، وما ذكره الشيخ المكين ابن العميد في كتابه « التاريخ » من أن سلمان بن داود كان ثالث ملوك مملكة إسرائيل، وأنه ملك أربعين سنة، وأنه كان يقدم في كل يوم على مذبح الرب ألف ذبيحة، وأن الرب أعطاه ما طلبه من الحكمة كي يستطيع أن يحكم شعبه مفضلا إياها على الأموال الوفيرة وطول العمر، وأن الله مكنه من بناء الهيكل الذي حفظ فيه تابوت الرب، وأن الملوك كانوا يسعون إليه كي يسمعوا الحكمة منه، وأن ملكة سبأ سمعت عن حكمته فأتت إلى أورشليم، ولكن الله غضب عليه لكثرة ما تزوج من نساء غريبات وثنيات والسياحة لهن أن يتعبدن لآلهتهن، بل لقد بني لهن المحرقات ليقدمن الذبائح لهذه الآفة، حتى لقد أقسم الرب

ليشقن ملكه من بعده ويصيره لغيره.

وكذلك كان البابليون يحتفظون أيضا بلوح عليه صورة إلههم بعل، وكان الإله يزور هذا المكان الذي فيه اللوح مرة كل عام كما يعتقدون ؛ بل كانوا يحتفلون بهذه الزيارة التي يقوم بها الإله في يوم معين من العام، فيقيمون المواكب الكبيرة الفخمة.

فمن هذه المواد مجتمعة ومن غيرها صاغ يكونو أملاك قصته الأخيرة، وضمنها كتاب «كبرا نجست » الذي يحوي علاوة على هذه القصة أسماء ملوك إثيوبيا منذ أيام منليك بن سلمان. ويعتقد الإثيوبيون جميعا في صحة ما جاء في هذا الكتاب اعتقادا لا يعتوره أيّ شكّ.

وهناك من المؤرخين من يقول إن إنشاء قصة زيارة ملكة سبأ إلى بيت المقدس تعود إلى عصور سابقة لهذا كله، إذ يرجعونها إلى القرن السادس الميلادي، بل يقولون إنها وضعت أصلا بالقبطية بواسطة راهب قبطي عاش في مصر أو أكسوم أو أي جزء آخر من إثيوبيا، وإنها ترجمت إلى العربية أولا في عصور تالية ثم إلى الحبشية في القرن الثالث عشر، وإنه قد أضيفت إليها في أثناء الترجمة إلى العربية زيادات من مصادر عربية أو إسلامية. بل هناك من يؤيد نصف هذا الرأي ويقول إن الترجمة من العربية إلى الحبشية كانت سابقة القرن الثالث

عشر، ويحدد لها مدة حكم لاليبالا، سابع ملوك الأسرة الزاجوية. وسواء أكان هذا الرأي أم ذاك فهو لاين ما ذهبنا إليه بل يؤيدها ذكرنا من أن ملوك الأسرة الزاجوية هي أول من اهتم بهذه القصة وعمل على تدوينها ونشرها، وتابعهم في هذا التدوين والنشر ملوك الأسرة السليمانية الجديدة في القرن الثالث عشر. وكان وضع ملوك الأسرة الزاجوية لها بالصورة التي تروق لهم وتتفق مع أهدافهم، كما كان اهتمام ملوك الأسرة السليمانية بها في القرن الثالث عشر، أي يكونو أملاك أو ابنه على أكثر تقدير. ولا بد أن يكون هناك جزء مشترك بين القصتين.

ويذهب إلى هذا الرأي كثير من المؤرخين، ويقولون إن الصياغة النهائية لهذه القصة أو الترجمة إلى الحبشية سواء من القبطية مباشرة أو من العربية لم تتم إلا عقب نجاح يكونو أملاك فيما أسماه « عودة » الأسرة السليمانية، ويؤيدون قضيتهم مستندين إلى أن بعض تعبيرات قصة «كبرانجست » تثبت النص العربي الذي ترجمت منه، بل يؤكدون أن هذه الترجمة من العربية تمت على يد أبي الفرج بن العسال الذي عاش في مصر في القرن الثالث عشر تحت إشراف قس إثيوبي يدعي إسحق استطاع أن يدس إلى الأصل العربي بعض إضافات لتعطى القصة أهمية لم تكن لها.

صورة مشوهة

وبعد أن أتم الإثيوبيون وضع القصة على الصورة التي شهوتها والتي تتفق مع أغراضهم اجتهدوا في أن يجعلوا مظاهر دولتهم ومراسمها تتفق مع ما جاء بهذه القصة، فبالغوا في المحافظة على مظاهر خاصة من أجل أن يجعلوا انتسابهم إلى سلمان بن داود أمر مفروغ منه، وراعوا أن تنطبق هذه

المظاهر على ما كان يحدث أيام هذا الملك، فيقولون إن من عادة أباطرة إثيوبيا إذا ما ارتقى أحدهم العرش أن يخرج فيستقبله الجيش والشعب بالأعلام الملكية داعين له بالسعادة والأيام المليئة بالهناءة، فيبادر هذا ويطلب من المطران تتويجه كي يحصل على السند الشرعي بجانب السند الفعلي.

ونحن نجد في مظاهر هذا التتويج التي كانت متبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر، والتي يصفها لنا بروس الرحالة الاسكتلندي انطباق يكاد يكون تاما على ما كان يحدث أيام سلمان وروته لنا الكتب المقدسة، إذ كان الإمبراطور يخرج من قصره راكبا بغلته يقصد الكنيسة وهي مهيأة لهذه المناسبة مفروشة بالبسط، وفي صدرها العرش الملكي تحت صورة كبيرة للقديس جورجيس أو الملاك ميخائيل، ويحيط

به القضاة والأشراف، ثم يأتي المطران – وهو رئيس الكهنة – فيمسح رأسه بالزيت المقدس، ويضع التاج على مفرقيه وهو يقول : «مات الملك، عاش ملكنا »، فيصيح الرجال علامة الفرح، ويتقدمون فيقبلون يده، في حين يكون الفناء الخارجي يعج بالحرس والشعب. وبعد انتهاء الاحتفال يغادر الأشراف المكان وهم يقرعون الطبول لإعلان الخبر الجديد إلى بقية الولايات بطريقة غير منتظمة، حتى إذا تم هذا أصبح في استطاعة الملك ومن حقه دون أي اعتراض من أحد أن يعزل من يشاء من أصحاب المناصب، وبخاصة مناصب القصر، ويعين فيها من يشاء من أصحابه.

ونحن نجد مظاهر التتويج أيام سامان كما جاءت في العهد القديم قريبة من هذا، فقد جاء في الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول بشأن تتويج سلمان : «فنزل صادوق الكاهن وناتان وبناياهو بن يهوداع والجلادون والسعاة، وأركبوا سلمان على بغلة الملك داود، وذهبوا إلى جيحون – لأن الهيكل لم يكن قد بنى بعد – فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة – وهي التي كانت حتى ذلك الوقت بمثابة الهيكل – ومسح سلمان، وضربوا بالأبواق، وقال جميع الشعب : ليحيى الملك سلمان. وصعد جميع الشعب وراءه، وكان الشعب يضربون الناي ويفرحون فرحة عظيمة حتى لقد انشقت الأرض من أصواتهم ».

بل حرص أباطرة إثيوبيا إلى عهد قريب جدا على أن يكون تتويجهم في مدينة أكسوم حيث يحتفظون بتابوت العهد، فصارت تعرف باسم المدينة المقدسة. وما زالت تيجان كثيرين من هؤلاء الأباطرة محفوظة هناك. وكانوا يختارون لأنفسهم عقب التتويج أسماء جديدة يعرفون بها كما اختار سلمان لابنه اسم منليك.

وكذلك على الإثيوبيون بإكمال هذا التشابه، فعين الإمبراطور اثني عشر قاضية ليكونوا مجلس القضاة، وكان هذا المجلس مختصة بالنظر في القضايا الكبيرة، كما كان بمثابة مجلس استشاري يستشيره الإمبراطور في أمور الدولة، وبخاصة ما كان متعلقة بالدخول في المعارك الكبرى أو عقد المعاهدات، وإن كان الإمبراطور غير ملزم بإتباع ما يستقر عليه رأى المجلس أو رأى أغلبية أعضائه، بل كان يملك حق مخالفته وتنفيذ ما يراه. وقد ظل الإثيوبيون طوال تاريخهم إلا يزيدون عدد أعضاء هذا المجلس واحدة ولا ينقصونه واحدة. بل ظل كما هو اثنى عشر عضوا، كما ظل الإمبراطور يحمل لقب « الأسد المنتصر، الخارج من سبط يهوذا، المختار من الله، ملك ملوك إثيوبيا »

وإذا كان الإمبراطور حينها منح شعبه الدستور الأول في سنة ١٩٣١ لم ينص فيه على وجود مجلس القضاة ذي الاثني عشر عضوا، فلم يكن هذا يعني إلغاءه، بل ظل قائماً يسدي المشورة إلى الملك كلما دعاه الإمبراطور إلى الاجتماع وطلب النصيحة منه. أما في

الدستور الثاني فقد أضاف الإمبراطور إلى المجلس المطران وأسماه مجلس التاج وجعل أعضاءه جميعا معينين، وجعل منه أداة يستشيرها في المسائل ذات الخطورة، بل في أخطر شؤون الدولة. مثل رغبة الإمبراطور في نزع ولاية العهد من أكبر أبنائه واختياره آخر ليخلفه على العرش إذا كان الابن الأكبر غير مستطيع تحمل أعباء الملك القصور فيه. وجعل الحكم على كفاية ولي العهد محصورة في يد الإمبراطور بعد استشارة مجلس التاج.

كما على الإمبراطور أيضا أن يعين له إلى جانب الحاشية المدنية حاشية أخرى دينية لها ما للحاشية المدنية من السلطة والنفوذ، وكان يرأسها الاتشيجي الذي هو كما ذكرنا كبير الرهبان الإتيوبيين ثم يليه «الاكابي ساعات» وهو الموكل بالمحافظة على المعتقدات وتتبع الخارجين ومحاكمتهم، والحكم عليهم وتنفيذ الحكم ؛ وإن كان هذا المنصب لم يخلق إلا أيام الإمبراطور زره يعقوب في القرن الخامس عشر.

وكذلك على الإثيوبيون بأن يحافظوا على الكنيسة المستديرة الشكل التي تشبه خيمة الاجتماع يتوسطها قدس الأقداس الذي لا يدخله إلا الكهنة والملك والأشراف، ثم القسم الأوسط الذي يدخله رؤساء الشعب، وهم الذين يمثلون رؤساء القبائل التي كانت تتكون منها مملكة سلمان، ثم القسم الخارجي الذي يقف فيه الشعب، بشرط

أن يكون الواحد منهم مستحقا أن يقف فيه، أي متطهرة لم يرتكب إثما، أما من يجد نفسه غير مستحق لأن يقف في أحد هذه الأقسام فعليه أن يقف خارج أسوار الكنيسة، ولو كان في الكنيسة مكان له. وكانت الكنيسة تشبه أيضا هيكل الرب الذي بناه سلمان حين « هيأ محراباً في وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب »، كما جاء في الإصحاح السادس من سفر الملوك الأول.

كما حافظ الإثيوبيون على أن يظلوا في الكنيسة وقوفا، فبرغم أن جميع الكنائس المسيحية، ومنها كنيسة مصر التي يتبعونها، قد أدخلت نظام الجلوس في غير الهيكل، إلا أن الإتيوبيين وحدهم ظلوا يحافظون على الوقوف رغبة في التشبه بنظام الهيكل القديم. ومراعاة هذا التشبه أيضا ظل الإثيوبيون يحافظون – على استعمال بعض الآلات الموسيقية في بعض احتفالاتهم الدينية كالطبول والسسترون وغيرهما، كما حافظ الرهبان على الرقص أيضا في بعض الاحتفالات لأن كهنة أورشليم كانوا يزاولون هذه العادة في احتفالاتهم، بل إن سليمان وداود كانا يرقصان في هيكل الرب أمام المذبح تمجيداً له.

بل ما زال الإثيوبيون حتى الآن يميلون إلى ترتيل المزامير أكثر من أي جزء آخر من أجزاء الكتاب المقدس، فيحفظونها عن ظهر قلب، أكثر مما يحفظون من أي جزء آخر، ويقبلون على نسخها في الأديرة أكثر من أي جزء آخر، كما يقبل الناس على شرائها وحيازتها أكثر مما

يقبلون على شراء أي جزء آخر من أجزاء الكتاب بعهديه القديم والحديد.

ويجوز لنا أن نقول أيضا إنه من أجل إكمال التشابه بين مملكة إثيوبيا وملكة أورشليم لم يحاول أحد من الأباطرة أن يضع نظاماً ثابتة من أجل توارث العرش، ومن ثم أصبح هذا التوارث – وإن كان محصورة في نسل منليك بن سلمان ومتجهة إلى الابن الأكبر للجالس على العرش أمرة نظريا فقط، وقلما كان يحدث من الوجهة الفعلية أو الواقعية ؛ فوراثة الابن الأكبر لأبيه الجالس على العرش نادرة، فقد حدث في أكثر من مرة أن فضل الابن الأصغر على الأكبر، كما اتجهت الوراثة في بعض الأحيان إلى الأخ أو العم، ثم تعود بعد فترة طويلة إلى الابن، وربما كانت القاعدة الوحيدة التي أخذ بها هي مبدأ القوة، أي أن العرش كان دائما من يصيب الأقوى الذي يستطيع التغلب على المتنافسين ؛ كما كانت القاعدة أيضا أن يبادر الجالس على العرش بالقبض على كل من كانت هناك شبهة في ارتقائه العرش من الإخوة والأعمام وقتلهم، أو على الأقل الزج بهم في السجون وحراسهم حراسة قوية، حتى إذا جاء الدستور الأخير نص على وجوب تسلسل الوراثة في أبناء الذكور دون أبناء الإناث، وفي الابن الأكبر دون الأصغر، إلا أنه في الوقت نفسه ترك للإمبراطور حق اختيار ولي عهد آخر غير ولى العهد الشرعي، على أن يأخذ بذلك إذنا من

مجلس التاج بعد أن يتبين كل من المجلس والإمبراطور أن هناك من الأسباب ما يمنع ولى العهد من القيام بوظيفة الملك خير قيام، لمرض أو غيره من الأسباب التي تعوقه عن مباشرة وظيفته. ولا يشترط في هذا المختار إلا أن يكون من أقرب الذكور إلى الإمبراطور ومن النسل المباشر للإمبراطور سهلا سلاسى الحد الأكبر للإمبراطور الحالي، على أن يقسم عند اختياره بأن يراقب تصرفات الإمبراطور الجالس على العرش ويحترم رغباته ولا يحيد عنها.

ويبدو أن هذا كله وإن كان متفقة مع التقاليد الإثيوبية إلا أنه وضع أيضا من أجل إكمال التشابه بين السلطة الإمبراطورية في إثيوبيا والسلطة الملكية التي كانت لداود ونسله من بعده، فقد جاء في سفر الملوك أن داود اختار سلمان لوراثته في العرش دون أن يكون سلمان هذا أكبر أبنائه، فقد حدث أن أدونيا وهو الابن الثاني لداود لما رأى كبر أبيه وعجزه عن القيام بأعباء الملك أراد أن يتعجل الأمر لنفسه، فأعد عجلات وفرساناً واتفق مع إبياثار الكاهن على أن يوم أدونيا ولية يعلن بعدها جلوسه على العرش مكان أبيه، فسمعت أم سلمان بذلك. فذهبت إلى داود وذكرته بوعده الذي كان قد بذله لها أن يملك ابنها سلمان من بعده، فأمر داود أن يدعى له صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو بن يهوداع وأمرهم أن يأخذوا معهم عبيد الملك، ويركبوا سلمان – وكان أصغر أولاده – على بغلته، وينزلوا به إلى

جيحون حيث يمسحه صادوق الكاهن وناثان النبي ملكة. وسمع بذلك أدونيا فاغتاظ ولكنه سلم بالأمر ورضخ له، بل انطلق وأمسك بقرون المذبح خائفة أن يقتله أخوه، ولكن سلمان عفا عنه، ثم لم يتردد بعد ذلك في قتله عند ما رأى منه ما يخالف التقاليد. بل لم يتردد عن أن يعزل أو يقتل كل من يشتم منه روح الثورة عليه من أنصار أخيه، كما فعل مع أبياثار الكاهن الذي صرفه عن أن يكون كاهنا للرب، وقتل أيضا بوآب قائد الجيش برغم التجائه واستجارته ببيت الرب وقرون المذبح – قتله وهو داخل الهيكل. وعين بناياهو بن يهوداع قائدة للجيش مكانه، كما وضع صادوق مكان أبياثار، وحدد إقامة شمعي أحد أعوان أخيه في مكان خلف وادى قدرون في مدينة أورشليم وهدده بالموت إن ترك مكانه، ثم قتله حين سمع أنه أخل بعهده. وكان الشعب يرى كل ذلك حقا من حقوق الملك لا يجادله فيها. وما زال الشعب الإثيوبي يرى في أشباه هذا العمل حقا من حقوق الإمبراطور.

زيارة ملكة سبأ لسليمان

ويعنى كتاب «كبرانجست» (سير الملوك) بذكر قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس ويتخذها بدءا التاريخ إثيوبيا، ثم يتدرج إلى ذكر منليك الأول وارتقائه العرش خلفاً لوالدته، ثم يذكر بعد ذلك أسماء الملوك الذين تولوا العرش الإثيوبي، ولكن الشك يعتور كل أجزاء هذه السير أيضا كما اعتور القصة من قبل، إذ لدينا من هذا الكتاب نسخ متعددة يختلف بعضها عن بعض، فبينما يذكر بروس الرحالة الاسكتلندي الذي ساح في بعض أجزاء إثيوبيا في أواخر القرن الثامن عشر وحصل على نسخة من هذا الكتاب أن عدد الملوك الذين حكموا إثيوبيا منذ عصر منليك حتى عصر بازن، وهو الملك الذي عاصر ميلاد المسيح، اثنان وعشرون ملكة. ذكر أسماءهم نقلا عن النسخة التي اطلع عليها، يذكر لنا صولت الذي ساح أيضا في إثيوبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أهم سبعة عشر ملكة، وتذكر المخطوطة الخاصة بذلك والموجودة في المتحف البريطاني تحت رقم ٢٨١ في صفحتها رقم ٢٨ ب أنهم واحد وعشرون، وتذكر مخطوطة أخرى بنفس المتحف تحت رقم ٨٢١ أنهم ستة وعشرون. وسواء أكانوا واحدا وعشرين أو اثنين وعشرين أو سبعة عشر أو ستة وعشرين، فلن يستريح عقل باحث إلى أن يكون عدد الذين حكموا

البلاد طيلة تسعة قرون هذا العدد اليسير من الملوك، مما يجعل متوسط حكم كل منهم لا يقل عن خمس وأربعين سنة، وهو رقم لا يستطيع عقل بشر أن يسلم به. والمعقول أن يتولى خلال هذه المدة سبعون ملكة متوسط حكم كل مهم خمس عشرة سنة، فإذا كانت هذه الأسماء المذكورة بعض أسماء من تولوا الحكم فأين ذهبت بقية الأسماء، لا سيما وأن الأسماء التي ذكرت لم تقرن بأية معلومات عنها ؟ وإذا كانت بعض هذه الأسماء قد ضاعت فن يضمن لنا أن ما بقي من هذه الأسماء لم تمتد إليه يد التغيير أو التقديم أو التأخير ؟ بل أين المصدر الذي اعتمد عليه في ذكر هذه الأسماء دون غيرها ؟ هذا إلى أن بعض أسماء هؤلاء الملوك تختلف في كشف عنها في آخر، سواء من حيث حقيقة الاسم أو الترتيب. فالشك إذن يعتور كل ما جاز بهذه الأجزاء كما يعتور غيرها، وما دام الشك قد قام حول جزء من الرواية دون أن يجد ما ينفيه أو يؤيده فما زال الشك قائمة على بقيتها إلى أن يجد أيضا ما يدحضه أو يؤيده.

ويمضي الكتاب بعد ذلك فيذكر أيضا أسماء ملوك يقول إنهم حكموا البلاد منذ عهد بازن حتى حكم عيزانا في القرن الرابع. ويكاد حكم عيزانا يقطع بصحة زمانه ومكانه ووقائعه بما عثر عليه من نقوش أتينا على بعضها. وقد ذكر الرحالة بروس أيضا أن هؤلاء الملوك الذين حكموا خلال هذه المدة كانوا ثلاثة عشر ملكة، في حين تذكر وثيقة

المتحف البريطاني الأولى أنهم كانوا أحد عشر. وما قيل عن ملوك الفترة الأولى يمكن أن يقال عن ملوك هذه الفترة أيضا من أن متوسط حكم كل واحد منهم كبير إلى حد يدعو إلى الشك أيضا. ويمضي الكتاب فيذكر أسماء تلو أسماء حتى القرن العاشر الميلادي، ثم يقول إنه بعد الملك دل نآد انتقل العرش إلى أسرة أخرى من غير أبناء سلمان، يطلق عليهم اسم زاجوا...

ونحن لا نعرف من أين أتت كلمة زاجوا، فليس في الأسماء التي ذكرت في كتاب سير الملوك اسم الملك يسمى زاجوا حتى ينتسب الملوك إليه، ولكن جويدي يقول إنه تحريف الكلمة بي الهجوية أو الأجوية ؛ ويقول إن هذه الكلمة وردت في رسالة عربية كتبها ملك إثيوبيا إلى جورج ملك النوبة يسأله التوسط لدى فيلوتاوس بطريرك الإسكندرية (٩٨١ – ١٠٠٢) كي يرسل مطراناً إلى إثيوبيا إذ أنها محرومة من ذلك منذ زمن طويل بسبب وجود ملكة غزت المدن وأحرقتها وخربت الكنائس، وهذه الملكة من بني الهجوبة أو الأجوية...

وقصة حرق جوديت للكنائس والأديرة وتخريبها للبلاد لا يذكره «كبرانجست »، إذ أنه مقصور على ذكر أسماء ملوك هذه الأسرة دون أية أعمال تنسب إليهم.

وقد اعتور الشاك أيضا نسبة هذه الملكة إلى أسرة زاجوا، فقد اختلف المؤرخون في ذلك كما اختلفوا في أسماء ملوك هذه الأسرة. فلا يذكر «كبرانجست » إلا أحد عشر ملكا بعد جوديت، ومعنى ذلك أن هؤلاء الملوك حكموا ٣٥٤ سنة، أي أن متوسط حكم كل واحد منهم يمتد إلى اثنتين وثلاثين سنة بل إن ثمانية من هؤلاء الملوك يرتفعون إلى أربعين سنة، وهي مدة يتطرق إليها كل الشك.

ويقسم بروس هؤلاء الملوك إلى قسمين، ويجعل القسم الأول خمسة ملوك، ويقول إنهم كانوا يهودا يمتون بصلة القربى إلى چوديت. أما الستة الآخرون فمسيحيون وينتسبون إلى مقاطعة الاستا. وتذكر مخطوطة أخرى في متحف باريس تحمل رقم ٦٤ أن ملوك الزاجوا كانوا خمسة فقط، وأنهم حكموا من ١١٤٥ إلى ١٢٦٨، وأنهم كانوا جميعا مسيحيين، وربما تكون هذه المخطوطة هي التي أوحت إلى بروس برأيه...

ومهما اختلف المؤرخون في أسماء ملوك أسرة زاجوا أو عددهم فإنهم يجمعون على أن تكلاهيمانوت هو الذي خلف چوديت، وأنه هو الذي أعاد المسيحية إلى البلاد بعد أن كتب إلى مصر يطلب مطراناً. فلا بد أن يكون هو الذي كتب إلى جورج ملك النوبة.

فمن ذلك نرى أن الشك قد اعتور سلسلة الملوك الذين تعاقبوا على العرش الإثيوبي من منليك الأول ؛ فهل يكون بعد ذلك عجب

إذا سرى هذا الشك أيضا إلى القصة من أولها إلى آخرها، ولم يترك لنا إلا الجزء الأول منها الذي يروي لنا خبر زيارة من تدعي ملكة سبأ لسليمان، مما يجعلنا نكاد نجزم أن الإتيوبيين قد اتخذوا هذا الأساس الديني الثابت أساسا لهذه القصة القومية التي تروي أمجاد تاريخهم وتعطيهم الأساس الذي ينتسب إليه ملوكهم.

مخطوطات الإثيوبية تكشف الحقيقة

ولم تكن مخطوطة «كبرانجست » أو قصتها معروفة في أوروبا حتى الربع الثاني من القرن السادس عشر، حين بدأ الدارسون يهتمون بأرض «القديس حنا » بعد أن قرأوا عنها ما كتبه « فرنسسكو ألفارز » الذي كان مبعوثا للملك إيمانويل ملك البرتغال إلى الملك داود. وكانت هذه البعثة برئاسة « دريو دي ليما » فيما بين سنى ١٥٢٠ و ١٥٢٧ ، فمن بين الوثائق الخاصة بهذه البعثة ذكر ألفارز سجلا بأسماء ملوك إثيوبيا بالإضافة إلى ما ذكره عن أحوال وعادات الشعب في كتابه الذي ظهر في سنة ١٥٤٠ باسم «القديس جون الهندي ».

وتلا ذلك أن نشر **Godinho** بعض قصة الملك سلمان وابنه منليك وذكر أنه اقتبسها من «كبرانجست »، وفي سنة ١٥٨٠ نشر القس اليسوعي ما نويل الميدا كتابه عن « تاريخ إثيوبيا العام، وكان مانويل الميدا هذا قد أرسل مبعوثا إلى إثيوبيا في أكثر من فرصة لأجل دراسة كتاب «كبرانجست » مباشرة، ولذا كان كتابه هذا كبير القيمة، وقد أرسل أخوه أبوليناری من بعده إلى إثيوبيا أيضا إلا أنه رجم هو وزميلان له حتى الموت في تجرى.

وإذا ما جاء **Tellez** في نهاية القرن السابع عشر وكتب «التاريخ

العام لإثيوبيا القديمة»، أو القديس جون، أعطانا تفصيلات كثيرة من محتويات «سير الملوك» وقد اعتمد في كتابته على ما كتبه من سبقوه من أمثال مانويل الميدا وألفونسو مندز وجود هو والأب بايز ؛ وأشار إلى كتاب **Tellez** عدة مرات جون لود لنفس حين كتب كتابه «تاريخ إثيوبيا» الذي نشره في فرنكفورت سنة ١٦٨١. ومن الواضح أنه لم يطلع على نسخة أصلية من القصة إلا أنه اعتبرها كلها خرافية.

وعاد الظلام يخم مرة أخرى على إثيوبيا وعلى قصة "كبرانجست" حتى نهاية القرن الثامن عشر حين أشار إليها جيمس بروس الرحالة الاسكتلندي في كتابه «رحلات لكشف منابع النيل»، فقد أهدى إليه الرأس ميخائيل وزير الملك تكلاهيمانوت عند مبارحته إثيوبيا بعض المخطوطات الإثيوبية الثمينة كان من بينها نسخة من «كبرانجست» وأشار له إلى أهميتها، كان بروس قد سمع عن هذه الأهمية حين مكث في إثيوبيا، وعرف مقدار تقدير الإتيوبيين لها، حتى إذا كانت الطبعة الثالثة من كتابه ضمنه القصة كاملة. فكان أول نشر لها كاملة في لغة أوروبية، ثم أهدى بروس هذه المخطوطات إلى مكتبة بلاودن فحفظها باسم مجموعة بروس رقم ٩٣، ٨٧، فكان ذلك بداية دراسة هذه القصة على نطاق واسع.

الفهرس